

رواية

لن أغادر منزلي

سليم بَطّي

نوفل

رواية

لن أغادر منزلي

سليم بطي



صدرت عام 2018 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 11-0656، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: © Lyn Randle / Trevillion Images

تصميم الداخل: ماري تريز مرعب
تحرير ومتابعة نشر: رنا حايك

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-946-1
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-947-8

الإهداء

إلى من بَذَلَتهما السماء عريسين
إلياسورديني وعصام بريدي

شخصيّات هذه الرواية حقيقيّة...
والأحداث بتواريخها مرويّة على لسان من عايشها.

عالمنا ليس بشرّير...

نحن الأشرار...

ترجّاني الحاضرُ لأهرب من وجوهٍ مُنيتُ بها وعافرتُ دهرًا في نسيانها وتكديسها بين ردهات الأمس المُحترقة، لكنّني ما استطعتُ يومًا التخلّص منها ومن قبضتها الدنيئة والمُحكمة على مِعصمي الحبيس في جحورٍ عتيقة تتآكلُ بصمت.

جلستُ يائسًا في حضرةِ أرضٍ قسرًا نزحتُ منها إليها، بالقربِ من صندوقِ صورٍ علا ظهرَه الغياب وأنكرته ألوان ماضيه، فأجزى السواد عنها.

حفظتُ وجهه المتّقد في خزانتي الخالية من الأكسية والمُثقلة ببصماتٍ تصفع جسدي كلّ يوم وتطارحني في منازلاتٍ محسومة الخيبة.

لسعتني صوره كلّما مدَدتُ أصابعي المشلولة لألتقط أنفاسها الضائعة وضحكاتها الهزيلة الغائرة في حاضرٍ فضّ ألم الماضي بكارته.

ذكرياتٌ حمقاء لم تهزمها طيّات السنين تتسلّط على فراشي المُتهتّك، وعلى جدران غرفتي المتداعية ترقص كفلّاحةٍ شامتة تحلج أفراحي. تجلدني لهوًا وبين الألمِ ونِدّهِ، تهلك بعضًا من كياني.

أفتّشُ عن الهاربين من قضبان الصور غير الذائبة. أجدهم أحيانًا، وأحيانًا أُخرى أفقدني بينهم...

أختنق وأتوه... والتائه لا يُعاتَب.

كندا، 2017

رباعيّة الجنين المُلثّم

(كواليس مسرحيّة ڤودڤيليّة)

ستعرّيك الغربة وتلقيك في غِمارها،
لن يكسوك إلّا وطنك.
عد لأحضانه،
فهو أحنّ عليك منهم.

1

«لشدّة جوعه،
أكل أصابعه.
ترك السبّابة والوسطى،
تحسّبًا لأيّ نصر.»
مجد كرديّة

جاءت لتبقى. أبكت لترتوي وذبحت لتشبع. سَلَّحَت الرجال ودرّبتهم على القتل. رَوَّضَت النساء على الخوف والأطفال على اليُتم.

عنيدةٌ هي الحرب. لا تتنازل عن خطوط أجنادها الأماميّة وعن عُددِ هجومها لأنّها أجبن مِن خوضِ عراقيب الحياة ودهاليزها دون الموت الرعديد، الأنيس المُجنّد لنصبِ كمائنها. يربضُ كالأفاعي ويعِدُ سيّدته الحاذقة مجدًا لا ينطفئ، ثمّ يتّكئ

على كتفيها ويستبقان معًا لذّة نصرهما المنُحطّ.
تغيّر طرازها بمكرٍ، لكنّها لا تعرج على طريقها اللعوب المحفوفة بأقاصيصَ محجوبة في ألسنةٍ تزغرد الأوجاع وآذانٍ لا تسمع إلّا الأنين وعيونٍ كحّلها السُخام وشوّهتها أهداب الارتياع.
تبتلعك الحرب لقمةً واحدة دون إجهاد أسنانها في مضغك. تتغوّط تويجات بقاياك على الأجساد السافِرة في عرسٍ يندب، ثمّ تسلك منعطفاتها بعزمِ مقاتلٍ جهبوذٍ لا يتزحزح عن مَهَمّته قيد أنملة.
لن يأسف أولياء الحرب على قتلك، ولن يستميحك ذو الكبد الأسود قبل أن يستولي على من لا يساوي في عرف الحياة شروى نقير. وجهك المسحوق بصفعات القنابل الهادرة لن يزيح رُماة الأرواح عن دربك ولن يثرثر في أبواقِ مستقبلهم صوتك. لن تلتصق مناشداتك على ذاكرةِ مسخهم الهرِم مُتقلّد الأجساد بقرونٍ شبّعها الغل. كُن مطمئنًّا، لن يتوقّف أحدٌ عند ورقة نَعْيك ليضرب لك السلام المعظّم، فمراسم التبجيلِ هذه خُصِّصت لمن سرّحك من أرضك وصادق على شهادة وفاتك ببصقة.
في كنفِ الجور وجلابيبه يتحوّل بنو البشر إلى

عيدان كبريتٍ تُحرق مرّةً واحدة في الأقباء. ولاحقًا، ستُساق أجلادهم إلى شوادر خردةٍ أنتَنَتْ في سُفل الحياة المفروضة عليهم.
ترفّع التجّار عنهم فكَسَدوا. صُيّر لُبابهم بِرازًا يُسمّد الحروب، لتنتصب من جبلة يأسهم شواهد الموتِ مُلَوِّحةً بنصرٍ واهم.
عويل زوجتك لن يطارد أحدًا، ونحيب والدتك لن يزاحم الوسائد. وهل ليُتم أطفالك صدًى؟
الأصوات لا تنغرس في أرض الموت المعزولة، ولا تمازح الأنفس الملتوية والمُستهزئة برفاتِ أنفاسك. يشنق الضمير ضميره عندما ينسلّ شبح الحرب إلى دورتك الدمويّة.
كم هي دمويّة دورات حياتنا!
لن يُذعر المقاتل وهو يعلّق حياتك على مشنقةِ بندقيّتهِ. لن يستمع إلى تضرّعاتك المجنونة، ولن يترك قهرك المعتكف في ابتساماتك المنكسرة دبغات الفزع على جلده الأصمّ.
صباح غدك عاجز، غزت كنائنه سهامٌ مشلولة. حبال أرجوحتك ترتجف، تخاف التحليق بعد أن قرّر أحدهم مراقصة رِقاب روّادها خلسةً. إيّاك والبقاء حيًّا... فلكلّ نَفَسٍ حِسابات عسيرة. احبس

شهيقك في صدرك قبل أن يُصادَر غنيمة حربٍ حيزبون لا تنتصر بشرف قوّتها، بل بضعف خصومها.

2

أمواجٌ شاحبة من الوجوه الثائرة بملامح المعارك وتشوّهاتها الخُلقيّة تتسلّق أجسامًا فاضت تعاسة روحها العاقِر هنا، عند مبنى مفوّضيّة اللاجئين التابعة للأمم غير المتّحدة في بيروت.

خلف وجوههم المُمغنطة بالمعاناة، يكمُّ دهاء الزمن وخياناته وتقلّباته.

هم جُند الحياة. يهربون من أرضٍ مرصّعة بقبورٍ محلّيّة ليلتحقوا بعنابر القهر المستورد في بلدٍ لا يعرف حكاياتهم، لم يأكلوا من خيرِ أرضهِ، ولم يحلّقوا في عنانِ سمائهِ بين رصاص الحرب والابتهاج. لا ذاكرة هنا تنتشلهم من غيابِ وجوهٍ اعتادَت مشاطرة رَخاء وحدتهم وسدّ رمق

أوجاعهم الجماعيّة. كلّ شيءٍ هنا جديد، حتّى عيونهم لم تُفطم بعد. ينظر بعضهم إلى بعض ولا يعرفون أحدًا ولا حتّى أنفسهم. لم يجمع بينهم إلّا الخوف.

مشهدٌ بروليتاريٌّ...

فوجٌ عابسٌ من النساء بزيّ القهر الموحّد يرتقي عرش الأسفلت ويراصف رعيلًا بائسًا من رجالٍ لا يزعزعهم انتظار فنتازيا الفرج. خُتِمَت ملفّاتهم بالدم الأحمر وأرسِلَت إلى أرشيف المُبعدين عن الحياة. يئِس الموت منهم وأنزل بهم شرّ عقاب. أخرَجهم من قبورهم المستعملة وابتلاهم بطوقِ العروبة المكلّل بالشوك. قسَرَهُم على الالتحاق بخندق الحياة بوصمةِ عارٍ صُهِرَت على أجبنتهم. أبرأ ساحته من دمائهم وترك للحياة مَهمّة إعادة تدويرهم ونخلهم وتقريصهم ومن ثمّ خبزهم ببُطء.

نطق صمتهم التائه حروفًا مُرمّزةً بلهجاتٍ ساقتها سخريّة القدر إلى رصيفٍ ضعضعته فوضى المراجعين وأنفاسهم المكتومة بقيحٍ أزليّ أخجله تقوّس أكتاف بلدانهم المحنيّةً ظهورها بحدبة الأمل.

يقودك مدخل المبنى إلى ممرٍّ ضيّق ينتهي

بنوافذَ صغيرة تُفتح لحالات الطوارئ – وصول القهوة الصباحيّة للموظّفين – وتُغلق لردع المراجعين ومنع تطفّلهم على سرّيّة من يستمتع ببرودة الغرف في الداخل. سنتمتران وعشرات الدرجات المئويّة والابتهالات المنحورة بمُديةٍ عمياء تفصل غرف الموظّفين عن هلع رعايا التهجير والقتل على الهُويّة وحروب الشوارع والحروب الأهليّة والطائفيّة في الخارج، تفصل الحقيقة عن الخيال بأسلاكٍ شائكة وحقولٍ حُبلى بالألغام.

ثمّة العديد من الجنسيّات، تحتلّ السوريّة صدارتها حتّى إشعارٍ آخر. تستلقي جوازات سفرهم على الرصيف للاستجمامِ بشمسٍ بيروتيّة تخدعُك بابتسامةٍ عريضة لا تُرادف ماً تمنحه من قهقهاتٍ للمُتسمِّرين تحتها، على شواطئ جونية.

حتّى الشمس استقت من الحروب أبجديّة التفرقة وقواعدها، فالبارودِ لا يورّث إلّا العنصريّة والأرصفة الزاخرة ببيادقَ منصاعة كالعبيد، تتسكّع فوق ألواحِ شطرنج دمَّرَت الفيَلة السمينة والأحصنة الهائجةَ والوزراء المرتشون والملوك الخونة قلاعها، ففاض السواد وأغرق مربّعاتها

البيض.
وبينما تتساقط بُقع الظلّ من صقيع الضمائر المتجمّدة، تأتي جيوب المساكين المتفحّمة بنيران الانفجارات الرعناء تارةً وبدهاء الشمس الغاضبة تارةً أخرى لجمعها، لعلّها تقي شظايا أرواحهم المُتقلّبة ألمًا شرّ الحرّ الظالم، ككلّ شيءٍ في هذا الصباح القائظ.
حيواتٌ أخرى تقتنصُ بزوغَ الصيف وتدفع عشرات وربّما مئات الدولارات لحرق أجسادها المُتهادية على سواحل البحر وفوق مراكب الدعارة العلنيّة بصحبةِ كؤوس الفودكا وأطباق الأفخاذ.
طلبَ رجلٌ أفلج خرْق النظام وكسْر خطّ الساجدين أمام النوافذ بانتظار معجزة إلهيّة تكشف عن وجهِ موظّفٍ من الداخل. بلغ السيل زُباه ولم يعد يحتمل المزيد من آفات شمسٍ تَمَترَسَت في السماء كجنديٍّ يقتعدُ دبّابة، وأجزلت في العطاء. تتقيّأ الشمس شررًا يتحوّل إلى عرقٍ تقذفه مسامّه بحسرةِ عيون الثكالى اللاتي يبكين أولادهنّ قبل أن يموتوا وكأنّ إرهاصًا أشاع النبأ.
لم يكن ذا حظوة. لم يعره أبناء جنسه اهتمامًا،

فقرَّرَت النسوة عرض أماكنهنّ عليه، لكنّه رفض سخاء كرمهنّ بشراسة هررة شباط الجائعة. حالت رجولته دون ركوب غندول نهر الناقصات. استُنفرَت شرقيّة الديك الخاملة في قنّه وبدأ يفتل ذيل فمهِ الرماديّ الطويل بأطرافِ أصابع يده اليمنى المنتهية بأظافرَ سود متكسّرة، متمتمًا بصيحاتٍ تُفهم بصعوبة...

«هذا اللّي كان ناقصني بآخر هالعمر الأغبر أوقف بين النسوان، تفه».

يؤرجح أحدهم نظراته بين السابلة ويستملي الوافدين الممتثلين بين يديه – وكأنّهم في محكمةٍ عسكريّة – بعض الأوراق الضروريّة للظفر برخصةِ التدهدي إلى المبنى العظيم الكلّيّ القداسة.

الدخول بالمجّان وهذا يكفي لإذلالهم.

بالقرب من المدخل، وخلف بقايا كشكٍ صغير استعبَدَ أطلال كاهله، انتصب رجلٌ أشهب الشعر وأفطس الأنف بجفنين غضيضين وعينين جاحظتين أمام إباحيّة الحياة كعضوٍ ذكريّ يبكي عدم ممارسته الجنس ولا حتّى العادة السرّيّة – أو العلنيّة – منذ دهر.

كان أقعس وأجذم ويفوق الشمس صبرًا على

رعيّتها الساخطة. يبيع المأكولات الرخيصة للبشر والمجّانيّة للذباب، ويحاول رشوة الشمس بقِطعةِ حلوى لعلّها تنكشح.

يصارع الثامنة صباحًا. ينهرها ويشتم ألسِنةَ أعوانها من ثوانٍ ودقائقَ مصوّبة بتمعّنٍ منقّبي الآثار على وجهه. يشتكي صباحها الطويل وقد اخضلّت فروة رأسه من قسوتها. يلعن عمله الأخرق في مدينةٍ لم يعد يطيقها.

«لمصلحة مَن تنتقم الشمس من أجسادنا؟»، يقول رجلٌ أخرس.

يركض طفلٌ سوريّ خلف شبح والده المُمدّد قتيلًا فوق رصيفٍ مزخرف بالرصاص ويسأل ألعابه: «من قتل والدي؟». مِصيدة الموت تركض وراءه بسرعةٍ أقلّ وتتوعّده بعقابٍ دون اللجوء إلى ميزان القضاء الأعور. ربّما أرادت مقاصصته على جنحةِ رعونتهِ، إذ تجرّأ وداس ذيل الحرب بأسئلتهِ الطفوليّة.

نبحت أوثان الحرب على الطفل غير الطفل شاهرةً خنجرها في وجهِ من لا حول لقوّته، لكنّه لم يُلفَح بضرر. لن يغتال الخوف مَن دفن والده وهو في سنّ العاشرة، ولاعبَ الرصاص في بِقاعٍ جرداء بدلًا من مراوغة الأطفال بكرةِ القدم فوقَ

المروج الخضراء حيث استُبدِلَت صافرة اللعبة بصافراتِ إنذارٍ لا تنام. لن ينال منه خنجر الرحمة هذا، فذاك الطفل قد ابتزّ براميلَ متفجّرة مُكرهًا عاصرها وتمرّس بالقفز فوقها هازئاً بمن أرسلها بريدًا عاجلًا بطوابعَ وهميّة. فهل له أن يخاف؟ أفلا يذوب الخوف حياءً أمامه؟

وبينما كانت أمّ الطفل غافلةً عن كلّ شيءٍ بملء إرادتها المسلوبة، عَدا الغلامُ أمام المراجعين كفرسٍ بلا لجام. طردَ يديه القصيرتين خارج جسده وخَفَقَ بهما وصنع من نحالة عودهِ طائرةً ورقيّة تلتهمها النيران. اقتحم السماء بإرادة النار وغزا الرصيف المُبلّط بعرق الكادحين.

«يا إبن الكلب، لك والله ماني تاركتك اليوم، كل يوم بتخلّيني سب أبوك اللّي صارت عظامه مكاحل. الله لا يسلّم فيك ولا عظمة يا إبن الكلب»، تصرخُ الأمّ ونعلها اليمنى في يدها واليسرى تزحلقت من قدمها وعاقت خطواتها لكنّها لم تمنع لسانها من العدو.

تركضُ خلفه بصعوبةٍ وتلهثُ أنفاسًا عرجاء كدعساتها. تتسلّى بتهديدهِ مُحاولةً قتل الوقت لحين انتهاء جدران الغرف المبرَّدة من تناول جيرها الصباحيّ لتسأل عن الغرامة المسجّلة

ضدّها بعدما استدفأت المسكينة بلبنان المسكين هو الآخر بشكلٍ غير قانوني.
أحدهم قال لها إنّ الحكومة اللبنانيّة عَفَت سلالة اللاجئين السوريّين من غرامات الإقامة، لكنّها لم تصدّق الخبر وحضرت تستقصي صحّته في المكان الخطأ، إذ كان عليها الذهاب إلى مبنى الأمن العام في ساحة العدليّة بدلًا من مبنى المفوّضيّة في مِنطقة الجناح. هكذا قالوا لها أيضًا، لكنّها اعتزلت تصديق فصيلة البشر وباتت تمارس حياتها بنفسها. لا تصدّق إلّا ذاتها، وأحيانًا تشكّ فيها.
تقدّمتْ نحو الكشك ومأكولاته الموضوعة على لوحٍ خشبيّ عجوز استشرى فوقه الذباب لممارسة الرذيلة علنًا والاستئناس بضجيجِ المُبحلقين به بلا عيون، ما استفزّ بعضهم وأثار شهوة البقيّة.
«حتّى الدبّان بيعملها ونحنا لا»، قال أحدهم مستنكرًا هذا الظلم الكوني. طنطن بقيّة الرجال، بينما ابتسمت بعض النسوة بخجلٍ حزين اعتنق الخِمار منذ سنين. يبتسمن وخلف وجوههنّ فتيلٌ يقدح.
تعدُّ المرأة السوريّة نَزر نقودها غير الكافية

لشراء ذبابة. تلعن الحكّام العرب، لكنّها لا تقتنع أنّ إيران دولة آسيويّة وليست عربيّة. تختصر أسماء رؤساء دول ما وراء المحيطات بجمعهم في خانة الرؤساء الشُقر. حتى أوباما عدّته أشقرَ، ربّما تيمُّنًا بأسلافه الذين لا تعرفهم.

«هجوَلونا ولاد الحرام، كنّا مطمورين ببلادنا وبالعين الهم وماكلين هوا وساكتين. لو الله أخذ أمانته بهذيك الليلة النحس ما كنتْ شلتْ طاسة الهم فوق راسي وجيت لْهون».

انشغلَ رجال الأمن، وكأنّهم أعضاء غيستابو ألمان بنسخةٍ مترجمة، بالصراخِ على رَتلٍ شكّل حَفَدة الشام وحلب، وأبناء شارع المتنبّي وبابل وملويّة سامرّاء ومنارة الحدباء – رحمة الله عليها – من ذرّيّة المنصور والرشيد، العدد الأضخم منه. اصطفّوا في مدارٍ سرطانيّ خبيث لا يُستأصل ينبع من المبنى وينتهي في نقطةٍ ما خارج المجموعة الشمسيّة. يهبُّ رجال الأمن غضبًا على المُبتلين وقوفًا كلَّما خرج أحدهم من المساحة المخصّصة لظلّهِ وقابلَ بالعصيان الأشكال الهندسيّة المُصمّمة لعصر أجسادهم. خروج أحدهم من الصفّ قد يطيح رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة غير الموجود وقتها. يصرخ

رجال الأمن على خلق الله والذباب يَطرب. سلطتهم الوحيدة تكمن في الصراخ على اللاجئين وإهانتهم وانتحال شخصيّة القنصل المسؤول عن إتمام معاملات لجوئهم، لكنّ مهامهم الفعليّة تقتصر على تزويد الشوارع بالمزيد من أعقاب السجائر والبُصاق الممزوج بالمُكسّرات.

القِصص المرويّة فوق هذا الرصيف مختلفة المصادر واللهجات والأديان والأجناس والأعراق. قد تُقابل المثقّف وغير المتعلّم، الأطفال والشيوخ والرجال والنساء، المُقعد والمُتظاهر بالعجز. هنا المنافيستو البشريّ اليومي.

استغلّ ابن السوريّة هذا الهراء وسرق من كشك العجوز تفّاحةً قزمة بدت له عملاقة. وضعها في جيب بنطاله القصير الممزّق والملوّث بقطراتٍ سود جَسِدَتْ به، وكأنّه بنطال سائس دواب. هرول بعيدًا كمن أُطلِقَت له الأعنّة وفُتِحَت له نوافذ السماء المنحوتة بصورِ من يعيش خلفها والمشرّعة أبوابها للملأ منذ سنوات لأسبابٍ أمنيّة تكافح شَغب أماني من يعيش تحتها. تعثّر الفتى بقنّينةِ مياهٍ بلاستيكيّة مليئة بالتجاعيد. بَطَحَتهُ أرضًا فانكبّ خائفًا واستلقى جوارها

خامدًا. قنّينة مياه تافهة معتكفة على الرصيف أطاحته وأحلامه.

قَفَزَت التفّاحة من زنزانة بنطال الصبيّ بلا خسائر. شكرت زميلتها القنّينة على إنقاذِ حياتها وأبدَت استعدادها لمعاضدتها إن حاول بنو البشر الأدهياء الاسترجال عليها ثمّ لاذت بالأرض هربًا، فهي تأبى أن تتحوّل إلى رهينةِ جيبٍ وقضمة خارجة من العدم إلى العدم. أمعاء الصبيّ لن تكون كَفَنَها ومرحاض بيتهِ – أو خيمتهِ – لن يكون قبرها.

تَدَحرَجَت التفّاحة بين المارّة وسقطت في مجرى مياه كانت البلديّة قد وعدت سكّان الحيّ بإغلاقه ولم تَبُرَّ – كالعادة – بوعدها.

لم ينل الطفل مبغاه من تلك الصغيرة المُفعمة بالكبرياء. إيّاك والمساس بكرامة تفّاحة.

بكى الفتى التفّاحة وعفّر رأسه بالتراب، وبَكَت الأمّ خيبة ابنها في سرقة الحياة، وبكى العجوز أشعّة الشمس. جامَلهم المبنى وبكى تخمته باللاجئين. أخرَجَت التفّاحة لسانها المبتور بقضمةٍ قديمة وهي تمتطي صهوة النصر ضاحكةً عليهم جميعًا وفخورةً بعذريّة قشورها.

أمّا الذباب، فاستمرّ في ممارسة الجنس

والتهام بضاعة العجوز واتّباع تعليمات رجال الأمن النابضة قلوبهم بالتجرّد من الإنسانيّة.

انتهى مشهد العبث...

رباعيّة الجنين المُلثّم

(مستمسكات الخيبة)

لا تهجر الأرض،
لا ترحل إلى السماء...

1

«عَلاقتنا بالمدن كعَلاقتنا بالأشخاص تمامًا، نحن لا نعرف لماذا نقع في غرام شخصٍ دون آخر، كما لا نستطيع أن نفسّر سبب ارتباطنا الوثيق بمدينةٍ دون أخرى.»

غيداء طالب (كلّ عام وأنت حبّي الضائع)

بيروت، شتاء 2014

ركامٌ من الحزن الفاضح يجثم على آخر أنفاس سعادتي المتهالكة عند وكر الشتاء.

لطالما ارتبط قهري بهذا الفصل اللعين الذي اعتاد جَلدي بصولجان الحنين لأيّامٍ أشتاقها وأتوق إلى احتضانها. فصلٌ أسبغ على صدري الهموم وأمعَنَ في ضخّ أكسجين الأذى إليّ من حيث لا أدري، ليترك روحي مكتومة بتقرّحاتٍ لا تندمل ولا تفقه الشفاء.

شوارع بيروت المعصوبة المستقبل تضجّ بالأضواء وبفوضى عيد الميلاد. الكلّ ينتظره، أنا لا أفعل. لم أُصَيِّر خرافات الشجرة والنجوم والأجراس رموزًا أتعبّد طقوسها وأبتسم لها بخشوعٍ مُبهرَج. لا أشعر بروحانيّاتٍ عند رؤيتي الشوارعَ الضيِّقة تغرقُ في مغاراتٍ ميلاديّة تتحلّق الأبصار حولها، وأشجارٍ فولكلوريّة لا تمتلك عيناك البُعد الكافي لرؤية قممها.

قممٌ عالية تناطح السماء وترمح فيها لتلقي عليك، مع تحيّةِ العيد، عقبةً جديدة تخنق الطرقات غير المتسامحة، المبتورة البدايات والمُنزلقة النهايات.

لم أركع تبرّكًا لتماثيلَ يوقّرها الجميع لنَيل البركات. تماثيلهم المُقدّسة المنحوتة ببراعة النسّاك الخاشعين تجتذبُني شكلًا لكنّها لا تستدرجني إيمانًا. لم أدهن جبيني بزيتٍ مقدّس لأدفنَ آلامي، ولن أحذو حذوَ جدّتي ووالدتي في زحف المسافات وتقديم النذور تكفيرًا عن الذنوب وطمعًا بعقارٍ في الجنّة.

قبل سنواتٍ، آمن أبناء جيلي ببابا نويل وجازت عليهم الخدائع. تعاقبت العوائل على تلقّف تلك الأفكار المحنّطة وتطعيم أولادهم وبناتهم بها،

فتطرّزت طفولتهم بالأكاذيب وتزاوجت الخرافات في عقولهم لتنجب لهم المزيد من الأوهام.

يهبط صاحب الرداء الأحمر من السماء البعيدة بعربةٍ ضخمة تجرّها الغزلان ليدخل منازلنا ليلًا ويزجّ بهداياناتحت شجرة الميلاد، عند مغارة الطفل يسوع أو بالقربِ من الأسرّة، في غرفِ نومٍ مُتصدّعة تبتلع أجنّة أحلامنا. ينقضّ الأطفال على الهدايا صبيحة العيد وبسذاجة الطفولة يفرحون ويشكرون العجوز الأحمر ولحيته البيضاء. يصوّرونه لهم عجوزًا، هكذا تقول الأسطورة وهكذا وجب التسليم بها.

عن نفسي، لم أصدّق يومًا تلك الأكذوبة البيضاء. ما انطلت عليّ خرافاتهم. كنتُ أخشى أن يتسلّل هذا البابا إلى غرفتي. ليس لتكتيل هدايا العيد، بل للفّ لحيته الطويلة على عنقي الصغير وشنقي انتقامًا لأنّني فضحتُ أمره في صفوف الأطفال، وإن لم يصدّقني أحد.

والداي البيولوجيّان لم يؤمنا ببابا نويل، جدّتي فعلت. لكنّني اكتشفتُ الخدعة قبل بلوغها الرشد. تجوبُ جدّتي متاجر بيروت لشراء ما قد يزرع على وجهي فرحة عيد عابرة تُكنَس حتمًا بعد أيّام، أو ربّما بعد ساعات. يملأ الشغف

محجريها وتتدفّق سيول الفرحة من يديها في كلّ مرّةٍ تغلّف فيها الهدايا لي ولأخي وتضعها تحت الشجرة. اعتدتُ مراقبتها خلسةً قبل انتصاف الليلة التي تسبق الميلاد لأستمتع بطقوسها السنويّة. أذكر غرفة الجلوس المُظلمة إلّا من أضواءِ شجرةٍ كانت تتسابق في الانطفاء والاشتعال، وصوت القلائد المُعلّقة في عنق جدّتي وهي ترتطم بشقيقاتها وبالصليب الذهبيّ المزاحم لها كلّما انحنت لوضع واحدة من الهدايا عند قاعدة الشجرة المُزيّنة بأوراقٍ ملوّنة تُصدرُ ضجيجًا تخشى أن يوقظنا. أخي لم يتلصّص على جدّتي. كان يقتل انتظار الهدايا بالنوم باكرًا.

«هذه اللعبة من يسوع، هديّة السماء، وهذه الدمية من والدتك، أرسَلتْها لك من لندن، وهذا القطار الأصفر الجميل من والدك، أرسَله لك من دبي»، جدّتي تخون مجهودها وتنسبه لغيرها.

«والشَجْرة صارت عيد... والعيد إسوارة بإيد...»

كنتُ أسألها: «ما الأقرب إلينا، السماء أم دبي؟ السماء أم لندن؟»، وكانت تكتفي بقُبلٍ على رأسي أو جبهتي، لا أذكر، لكنّها تستقرّ في النهاية فوق عينَيّ. شفتان غليظتان تزعجان

هدوء وجهي. لطالما تذمّرتُ من قَبلٍ أعدّها اليوم كنزًا في عالمي الشحيح العواطف.

لم تعلم جدّتي أنّني عرفتُ حقيقة مرسال السماء المدجّج بهدايا يسوع ووالديّ. كنتُ حريصًا على مشاعرها، متفاديًا لسعها بفكري السليط.

في هذا الوقت من السنة تكون والدتي مشغولةً بالتجوال بين قارّات الكرة الأرضيّة للتبضّع والسياحة، ووالدي يغيب عن الأنظار ليجد فسحةً ينفق فيها أمواله. لا وقت يسفكانه في تفاهات طفولتي.

ولأنّ جدّتي أحبّتني، قرّرتْ خداعي بتلك الهدايا، فقرّرتُ مبادلتها حبًّا يضاهي بغضي لمعلّمةٍ بريطانيّة في مدرسةٍ داخليّة في لندن، نُفيتُ إليها لاحقًا كما تنفي الدول مجرمي الحرب. قادتني الشمطاء ككلبٍ أجرب إلى المستشارة النفسيّة عندما رأتني أصنع الصواريخ الورقيّة وأقذف رؤوس الأطفال بها. ظنّت أنّ هذا الطفل العربيّ الأرعن ليس إلّا بذرة لإرهابيٍّ محنّك. لكنّني خيّبتُ ظنّها ولم أنضج.

أصبحتُ صاروخًا من ورق، وكان هذا جلّ فعلي وأعظم ذنوبها، لأنّها لم تحرقني يومها.

2

لم تُبطل بركات العيد نحس يومي ولم تمنع سيّارتي عن التعطّل صباح ليلة الميلاد عند مِنطقة الزلقا القريبة من بيروت. ها هي الآن قابعة في مغارة التصليح. ربّما هذه عاقبة من لا يعلّق صليبًا في مركبته.

أنذرتني والدتي مغبّة الإبحار في الشوارع دون تعليق مِسبحة على الزجاج الأمامي للسيّارة لأتبرّك بها، لكنّني كالعادة لم أنصت، فأنا عكسها تمامًا. اعتادت إغراق سيّارتها وشقّتها في لندن بالصور واللوحات الدينيّة الأرثوذكسيّة وقصاصات الصلوات المكتوبة بخطّ اليد، إذ تعتقد أنّها المسؤولة عن حماية السيّارة والشقّة وسكّانها

من السرقة والحرائق والزلازل والكوارث الطبيعيّة الأخرى.

تطالع الرُزنامة الكنسيّة باستمرار وتمتنع عن العمل في الأعياد المسيحيّة كعيد التجلّي وأسبوع الآلام الذي يسبق خميس الفصح والجمعة العظيمة، وعن أكل اللحوم في مناسباتٍ معيّنة تستقيها مشافهةً من الخوري وقراءةً من مطبوعات مكتبة الكنيسة. تملأ المنزل بالشموع زُهدًا وتصوّفًا في عيد مار تقلا ومار شربل ومار قرداغ. لا أعرف هذا الأخير لكنّني أسمعها تردّد اسمه دائمًا.

كلّما دخلتُ شقّتها ظننتُ أنّ حريقًا شبّ في واحدةٍ من غرفها، إلى أن تظهر بتنسّكٍ وروحانيّةٍ من مكانٍ ما وكأنّه محبسة ورائحة الطيب تسبقها والمِبخرة في يدها وهي تتلو الصلوات، فأكتشف أنّها تمارس رياضةً روحيّة أو طقوسًا كنسيّة.

«كيرياليسون... كيرياليسون... كيرياليسون».

لا تتحدّث اليونانيّة لكنّها تلازم صلواتها. لا تتلكّأ عن الترتيل بلسانها بسببِ زياراتها المستمرّة لكنائس الروم الأرثوذكس.

عندما شبّ حريقٌ في شقّتها العام الماضي،

أكّدتْ لي أنّ وجود البَخور بالقرب من صورة القدّيسة ريتا في غرفة نومها كان الكادح الأول في وجه هجيج النيران.

سيّارتها كنيسة مصغّرة لا ينقصها إلّا المِبخرة وصاحب لحية من نوعٍ آخر تختلف عن لحية بابا نويل، لكنّه بابا أيضًا.

ما أكثرهم الآباء، والأيتام سواء.

3

ستبدأ رحلتي التَعِسة مع سيّارات الأجرة وسائقيها.

عَلاقتي بهم تشبه عَلاقتي بفصل الشتاء والأعياد. معظمهم يثرثر كثيرًا ويتحدّث بالسياسة بغباءٍ مُستفحِل، وخاصّة كبار السنّ منهم. يصولون ويجولون في قِصصٍ عتيقة ويناقشون قضايا من عهدٍ عاد. يستحضرون أسماءً لأناسٍ لا أعرفهم، قذَفتْهم الأقدار إلى السماء قبل أن تركلني نطفة طائشة إلى هذه الأرض.

غادرتُ مِنطقة الأشرفيّة – حيث أسكن في بيروت – وتوجّستُ طريقي باتّجاه المطار مع سائق أجرة لطيف، وهذه ظاهرة فلكيّة نادرة

قياسًا بتجاربي البائسة معهم. لا أتوقّع الأفضل منهم، تحديدًا في بيروت وفي الأعياد والمناسبات الدينيّة الأخرى. يصاب معظمهم بهوس الجشع في تلك المواسم. تتخلّل نفوسهم رغبةٌ في الانقضاض على جيبك ونهش هديّة العيد عنوةً. الأعياد تجارة وفرص، ككلّ شيءٍ في هذه المدينة الحاضنة لكلّ متناقضات الحياة.

كان السائق في منتصف العمر. في البداءة خلتهُ عجوزًا بسبب مجازر الزمن المُرتَكبة بحقّ تفاصيل وجهه البارزة، والعشب الأبيض الكثيف النابت على شعره الكثّ والأجعد وعلى حاجبيه الأشعثين. كشفَ لاحقًا عن عدّاد عمره الحقيقيّ البعيد كلّ البعد عن تكهّناتي. لكنّه سائق أجرة لسيّارةٍ حبلى برقمٍ عربيّ، إذن هو عجوز.

شعرتُ من لهجتهِ ومن الصليب الخشبيّ المُعلّق أمامه والهارب من كتائب الإعدام وعمليّات الإبادة الداعشيّة للرموز المسيحيّة والخطف والقتل على الهُويّة في دول الجوار أنّه غير لبناني وينتمي إلى ديانة الصليب.

ربّما كان لاجئًا عراقيًّا فرَّ خوفًا على خشب عنقه من المذابح الدمويّة والتراجيديا الأزليّة بين

القطّ والفأر في بغداد والموصل، أو ربّما نازحًا سوريًّا اغتمّ وضاقت عليه أديار صيدنايا فتشبّثَ بأحجار حريصا التي تعلّقت يومًا بقمّةِ جبلٍ لتنجو من طوفان الطائفيّة على أرض لبنان. طارت ولم تهبط، ولا أعلم إن ستفعل.

وصلَ السائق بشقّ الأنفس إلى لبنان، المحطّة الإلزاميّة المؤقّتة وربّما الأزليّة لمتضرّري المِنطقة. وصلَ وهدفه الوحيد أن يعلّق نجماً ذهبيًّا فوق قمّة شجرة ميلاد لم تنبت بعد.

لطالما سألتُ نفسي عن سببِ تمجيد الناس النجوم في مناسبةِ عيد الميلاد. أليست تلك الغَيّة التي استدلّ بها هيرودس إلى مكان الطفل يسوع وكاد يقتله كما قتل بقيّة أطفال بيت لحم؟

كانت الطريق سالكةً وهذا نادر الحدوث في بيروت. شعرتُ أنّه يوم الحظوظ غير المتناهية. إنّها بالطبع شفاعة بابا نويل التي حطّت على كتفي.

«كحمامةٍ نزلت لكي تشرب...»، قال الراديو.

ابتهج قلبي بتلك البركات وشكرتُ الله لأنّ الحظّ العاثر قد تخلّى عنّي هنيهةً. أخذ قيلولته السنويّة كمحاربٍ قرّر الفرار من المعركة وحياكة

بِزّة سلام رثّة.

– هل تقيم في بيروت؟

سألني السائق مقدّمًا سيجارة محلّيّة رخيصة.

– نعم... لو سمحت أنا لا أدخّن ورائحة السجائر تكتم أنفاسي. أعاني من الربو.

ابتعدتُ عنه والتصقتُ بزجاج المقعد محاولًا سياقة حُجّة مقنعة تدعم نفوري من سجائره ومن رائحة البيرة المُحلّقة فوحًا من مغارة فمه التي كانت كأنّها مقبرة جرذان.

أمارس دومًا حيلة الربو لإثارة شَفَقة ربابنة سيّارات الأجرة من المدخّنين واستفزاز رعبهم من إمكانيّة موتي اختناقًا في سيّاراتهم إن قرّر أحدهم سلخ جسد سيجارة وتعليقها في مِقصلة شفتيه. خدعتُ الكثير منهم، لكنّني لم أنفذ برئتيّ عندما تهتُ بين مطرقة الشوارع المزدحمة بكلّ شيءٍ إلّا البشر وسندان ردود بعضهم غير الآبهة إلى توسّلاتي، «فيك تنزل، الله معك... أنا ما بقدر إذا ما بدخّن، بدوخ».

هذه المرّة، تعاطف سائق الأجرة الطيّب الروح مع قضيّتي السامية. تمنّى لي أن أبرأ من مرضي الوهميّ هذا. ربّما ليكون قادرًا على التدخين في المرّةِ المقبلة إن انتقم منه القدر

وساقني مجدّدًا إلى مركبتهِ المصابة بسرطان الرئة بسبب إهماله لها. الغبيّة ما تباهت يومًا بالربو كما أفعل.

تركَ علبة السجائر الكابية الحظّ وأعلن موقِفًا عتيدًا وبطوليًّا تُشَدُّ به الأظهر لسائق أجرة يشعر بمعاناةِ راكبٍ ألعُبان.

– كل شي إلّا صحتك، كس إخت الدخّان.

– ميرسي، كلّك ذوق...

ابتسمتُ له رغم تحفّظي على طريقة تعاضده معي.

– من وين حضرتك؟

عاود محاولته الحثيثة للتحادث معي.

– من تنّورين، لكنّ عائلتي تسكن بيروت منذ سنوات.

أجبته، شارحًا تفصيلةً لم يسألني عنها.

– رائعة تنّورين، من أجمل مناطق لبنان. شو بدّك بالحكي خيّو، الشمال أحلى بكثير من الجنوب. ناس مسالمين مش مثل غير مناطق خيّو. بدّك سيجارة خيّو؟

– مسيو قلتلّك ما بدخّن!

أجبته بلبنانيّة تتعثّر، افتعالًا، بالفرنسيّة لأتصنّع الوطنيّة الأرستقراطيّة وأحصل على لقب ساكن

من سكّان مِنطقة الأشرفيّة.

أتحدّث بجمال لبنان وألَقه وأنا لا أعرف عنه إلّا العاصمة وبعض المناطق الشماليّة. حتّى بيروت لا أعرف عنها الكثير. تقوقعت حياتي هنا في ثلاث مناطق، الأشرفيّة وشارع الحمراء والداون تاون أو «البلد» كما يطلقون عليها.

– من وين من تنّورين؟

باغتني بسؤالٍ آخر أحرجني وأبقاني في حَيرة، فأنا أجهل الإجابة.

ارتبكتُ قليلًا. نظرتُ إليه وأطلقتُ ابتسامةً غبيّة صاحَبَتها زفرة مُرهَقة رسمتها خوذةً على وجهي لأتنصّل من حرقتي في محاولةٍ فاشلة للتستّر على جهلي والتملّص من خيبتي. لكنّه لم يقتنع وصمّم على معرفة مسقط رأسي ليفضحني أمام نفسي.

– لا أعلم.

قرّرتُ الاستسلام وقرّرَ السائق الاستبلاد. تنازل عن رغبتهِ في معرفة الخفايا الجغرافيّة للمِنطقة.

4

أنا ابن تنّورين العاق.

خرجتُ منها ولم أنظر إلى الوراء خوفًا من أن أتحوّل إلى عَمودِ ملحٍ، فبتُّ لا أعرف عنها إلّا اسمها الذي طاردني في الغربة وشذرات طفولتي في منزلٍ نجا بأعجوبةٍ سماويّة من النيران الصديقة للحرب الأهليّة.

لا أعلم ماذا حلّ بتنّورين بعد مغادرتي البلاد في عام 1992. وقتها كان لبنان يتعافى من طعنات الحرب الأهليّة في جسدهِ بعد أن فرغ من دفن أهله. كنتُ في حداثة عمري أحبو نحو التاسعة. مُرغمًا تخلّيتُ عن بلدي، وبمحضِ لا أرادتي جلستُ على أكتاف بلدٍ آخر حيث أضعتُ نفسي

وتحوّلتُ إلى لوحةٍ مذبوحة وغارقة في دماء ألوانٍ واجمة محفوفة بإطارٍ كهل، فبَدَّلت الغربة بالشيخوخة طفولتي.

بعض المشاهد لا تتنازل عنها الذاكرة، تحفظها كنزًا ثمينًا في مغارةٍ لا تُسرق لتتغذّى خفافيش الأمس على صخورها. أكرهُ الذكريات وأمقتُ روائحها المنثورة أمامي كحبّاتِ رملٍ تعانق أوجاعًا مُنَضَّدة تنتشي كلّما تمرّد حزنها الدِهاق على ابتسامات عنادي وسواقيها الجافّة القادرة على استيعاب المزيد من الدموع.

جدّتي تجمع ثيابي وألعابي ونبضات قلبي والروائح التي صرفتُ سنوات طفولتي في جمعها وذكرياتي المشتّتة فوق هجوع الحرب الأهليّة. تُصندق بعضها وتزجّ الباقي منها في حقيبةٍ لم أجرؤ حتّى اليوم على فتحها خوفًا من أن تنفجر في وجهي صوَر ما أحببت ومن أحببت. الحقائب لم تُخلق لضبّ لفائف العورات، بل لحبس ما قد يُفرحنا.

تبكي قليلًا ثمّ تبتسم. تُقسِم بالله على أنّها ستشتاقني كثيرًا. عانقتني بحرارةِ مقاتلٍ يحتضن قذيفةً صوّحتْ جسده. تلفّحتْ ببرد العجوز وتدفّقت دموعها بغزارةِ القنابل لتخطّ فوق

نظراتها شوكًا ينذر بالرحيل. كانت تعرف أنّها تودّعني للمرّةِ الأخيرة. أنا لم أعرف.

بكيتُ معها وتقطّعت نِياط قلبي لنشيجها وحرقتِها. شعرتُ أنّ قطع حبل السرّة هذا ليس إلّا حلمًا سيخبو قريبًا، لكنّه كان كابوسًا ثابر على النضوج داخلي كطاعونٍ خبيث لا يذبل وكزوبعةٍ مجنونة لا تسكن. لم أسقه لكنّه ارتوى، ولم أحتضنه لكنّه بقى. خامرني شكٌّ في أنّني سأفقد الكثير، لكنّني لم أكن صائبًا. لم أفقد الكثير، بل كلّ الكثير.

تحوّلت تنّورين وجدّتي وأخي وكلّ ما أملك إلى ذكرى مؤلمة أتحاشى التفكير فيها وأهرب منها ومن مواجهتها كي لا يهلكني الفراق أكثر من ذلك.

تركتُ رائحة جدّتي تفوح وحيدةً مع حساء بصلٍ أعدّته لي وأخي، وشارعًا ضيّقًا يربط منزلنا بأوديةٍ سحيقة محاطة بجبالٍ باسقة.

أشتاقُ ماء تنّورين النمير وأشجارها الظليلة وبيتنا العتيق الذي يبثّ الحنين في أوصالي كلّما مرّ طيفه في ذهني، ما انفكّت ذكراه حاضرةً. لا أدري إن صمد هناك أو رحل هو الآخر كما جدّتي التي لم تمت قريرة العين. كانت وحيدةً في بيتها

الدافئ تنتظرُ عودتي وآخي، وعودة جدّي الذي خُطفَ في سنةٍ سوداء كغيرها من سنينَ غبراء ارتأست وبنات دهرها بيوتنا وطاب لها البقاء لتعيث في الغدِ قهرًا.

أحنُّ إلى تنّورين وإلى ذاتي وجسدي قبل أن يكبر في مدينة الضباب. أحنُّ إلى سريري قبل أن يصغر في ذلك القُمقم الموحش في بلدٍ لم أقتنع يومًا أنّني أنتمي إلى مقاعد دراستهِ المصنوعة من نشارة جدران المجهول في مدرسةٍ داخليّة في قلب عاصمته الباردة.

أفتقدُ تذمّري من طبقٍ أعدّته جدّتي ولم يعجبني. أشتاقُ كرتي البيضاء التي كانت تقفز إلى منزل جارتنا العجوز الدرداء، فتخرج تتوعّدنا بالجزاء. ألعابي الساذجة وملابسي البالية وطاحونة ذكرياتي العتيقة. الحائط المُلامس لطاولةِ دراستي، وقلمي الرصاص الذي شاطرني وساوسي. أُضمرُ في ذاكرتي أشلاء صخرةٍ شاهقة كنّا نلعب، أنا وأخي، عندها، ونستعليها لنرى الأودية. نقشتُ عليها أحلامًا بسيطة لم تتحقّق لأنّ رحمها كان عقيمًا. حلمتُ أن أُصبح طيّارًا لأطير فوق تنّورين وأكتشف عوالمها القابعة وراء الجبال العالية.

لكنّني، رغم كلّ شيء، لا أريدُ رؤية تنّورين مرّةً أُخرى.
أرتاع من زيارة ذكريات خلودي إلى النوم على وسادة جدّتي الخالية من القلق، عندما كانت هواجسي لا تتجاوز سور حديقتنا الآمنة.
لم تملَّ تلك المدينة العنيدة من نسج ذكرياتي مع أسراب طيورها المهاجرة إلى اللامكان وإلى كلّ مكان. ما تراخت عن استمناء حياتي لأقذف منها حنينًا لا ينضب ولا يُفطم.
جرّعتني لندن الضيم وكعّبتْ حمولي. نسّرتْ جسدي وقضّتْ مضجعي زُهاء عشرين شتاءً. حتّتْني من كلّ شيء وقطفتْ عُنقود بهجتي وعلّقتني على جدران مسلخها ذبيحةَ أضحى تحاول النجاة من سكّينِ قصّابٍ بذيء اليد يلحق بها لينحر عنقها ويكشط جلدها ويبخع جسدها والأطفال من حولها يضحكون ويرقصون والنسوة يتأهّبن لإعدادها وليمةً شهيّة لعوائلهنّ الساغبة.
طاردني صدى لبنان في مدينةٍ يتمرّغ البشر في ضبابها حيث الكلّ في عجلةٍ من أمرهِ لاغتصابِ بعض الفسحات من عقاربَ خنّاسة تتوسّط ساعة عذراء لا تهرم، يتدلّى منها بندولٌ

لا يملّ من مراقبتهم.

لم ألمح تنّورين منذ ذلك اليوم. لم ألمح جدّتي ولم أتذوّق حساء البصل الساخن. رقدت جدّتي للمرّةِ الأخيرة ولكن ليس على وسادتها الغضّة التي كنتِ أهرب إليها كلّما طاردني كابوسٌ مزعج. رَحَلَت عنّي ورحلت معها القِدر والوسادة بأحلامها.

حين فقدتها فقدتُ الكثير منّي. لا أعلم من منّا سبق الآخر في الرحيل. موتها القديم ثلمة لا تُغلق، ما زالت تصرخ في حاضري اليتيم.

أفتقدُها بجنون حتّى بتُّ لا أشتاقها، فبعض الاشتياق لا يليق والحنين.

5

لطالما روت لي عمّتي العارية الوجع قِصصًا عن أيّام الحرب الموحشة التي عاشتها مع جدّيّ. حاولتْ دفن كلّ ما يعود بها إلى تلك الفترة لكنّها أخفقت وبقيت الذكرى تلاحقها أبدًا وتحشرها بين هلالين.

لم ألتق وعمّتي كثيرًا من قبل، تعرّفتها عندما وصلتُ إلى بيروت للمرّة الأولى. كنتُ أتردّد إلى شقّتها الآسنة كلّما سنحت ليّ الفرصة فأستمع إلى رواياتٍ حاكتها أطراف ليالي الحرب الأهليّة عن أفراد أسرتها المكوّنة منها ومن جدّيّ ووالدي المُغترب، والفزع. حاجبٌ وفيّ ورفيقٌ أزليّ تبوّأ أحلامهم دون وازعٍ أو رقيب.

أتوق دومًا إلى رؤيتها. أشعر أنّني أزور جدّتي في تنّورين التي أشتاق، وهي كانت تستأنس بي بعدما سَئِمَت جدران شقّتها العجوز. تقضي وقتها مدسوسةً في تلك البناية العتيقة المتآكلة من الداخل والخارج. ضجيج الشارع يزعجها وسكونه يقلقها فتُهرع في الحالتين إلى النافذة لتستطلع الخَطب.

– كنتُ في العشرين من عمري عندما خُطِفَ والدي. يمرّ ذلك اليوم في خاطري حيًّا وكأنّه الأمس. كنّا قد ترِكنا تنّورين وتوجّهنا إلى بيروت بسبب عمله. وقَفَت جدّتك كعادتها عند باب الشقّة – تشير إليه – وطلبت منه أن يمكث معنا إن لم يكن ثمّة شيء بذي بال يستدعي ذهابه إلى الجامعة في تلك الأوضاع الأمنيّة المتردّية، وتحديدًا في بيروت الغربيّة. كان يعمل مُعيدًا في الجامعة الأميركيّة في شارع الحمراء، هل زرتها؟ واستطردت دون الاستماع إلى ردّي: لكنّه رفض وقال لها إنّ الجلوس في المنزل يُشعره بالملل.

توقّفت قليلًا عن الكلام وسألتني إن كنت راغبًا في احتساء بعض الشاي، لكنّني طلبتُ منها متابعة سرد القِصّة عِوضًا من أيّ شيءٍ آخر.

– كانت تلك المِنطقة بالقرب من الحدود

الفاصلة بين بيروت الشرقيّة والغربيّة، أي على خطوط التماس بين الجبهات المحتربة. خرج والدي كعادتهِ مع وصول سيّارة الجامعة التي كانت تقلّه ومجموعة من الموظّفين يوميًّا من فرن الشباك إلى شارع الحمراء مرورًا بشارع بدارو ومناطق المتحف والكولا وڤيردان فالجامعة. سمعنا الكثير من القِصص والروايات عن اختفاء والدي ومن كان معه. منهم من قال إنّ نقطة تفتيش وهميّة كانت تعسكر قرب المتحف الوطنيّ خطفته ومن معه وسفّرتهم إلى سوريّة. آخرون زعموا أنّ مجموعة من المسلّحين الأوباش خَطَفَت السيّارة والسائق ووالدي وموظّفًا مسيحيًّا آخر من شارع ڤيردان، وغيرها العديد من الأقاويل التي كانت تُربكنا.

سألتها:

– وكيف تصرّفتم في حينها؟

– جالت والدتي شوارع بيروت بحثًا عن خيطٍ يوصلها إليه. قرعت أبواب العديد من المسؤولين ومنظّمات المجتمع المدني. استوضحت واستقصت في موضوع خطفه، لكن دون جدوى.

أخبرتني بحسرةٍ تلتها تنهيدة طويلة وهي تنظر إلى صورة جدّي غير المُعلّقة على الحائط.

ردّت رأسها إلى الوراء وتخلّت عنها لنُمرقةٍ وُضِعت أعلى ظهر الأريكة، أغمضت عينيها ثمَّ فتحتهما بعد ثوانٍ وقد استقرّ بصرها إلى السقف. نظرَت إليه ورمته بابتسامةٍ لم أفهم إن نَبَعت من سعادةٍ أو من حزنٍ مجبولٍ فيها لم تقوَ الدموع على ترجمته فسلكتْ طريق الابتسام المُختصرة.

كنتُ مُتحرّجًا من صمتي الرخاميّ قبالتها. تهتُ بين أحرفها وسُختُ في نظراتها وابتسامتها ودموعها.

ما استتر مَن كان موجوعًا. فلا ثغرها الباسم خدعني ولا صمتي أنساها.

– وهل يُعدّ حاليًّا من المفقودين أم...؟

عدتُ مستفسرًا بارتباكٍ مفضوح.

– حتّى الآن تهاتفني بعض المنظّمات. يسألون عن أوصافهِ وعن ذلك اليوم المشؤوم. بيقولوا فيه أمل، بس على رأي فيروز هالأمل أوقات بيطلع من ملل.

ظلّت عمّتي ساهمةً لدقائقَ بعد أن تاق نظرها بغمومٍ ندّت خدّيها، ثمّ همستْ بغتةً بصوتٍ متهدّجٍ رقيق داعَبَته ضحكة مكتومة كادت تفجّر شدقيها...

– أحبُّ فيروز كثيرًا. فقط لو تغيّر كلمات أغنيتها «شايف البحر شو كبير... قدّ البحر بحبّك» إلى «شايف البحر شو كبير... قدّ البحر بكرهك».

كنتُ أظنّ أنّ عمّتي لا تعرف مشاعر الكره ولا تكنّها لأحد. فاجأني كلامها، فناكفتها على الفور: «بتعرفي تكرهي؟ كنت بتصوّرك بتعرفي تحبّي بس».

– ما حدا بيعرف يكره إذا ما جرّب يحبّ. ما بتكره كتير إلّا إذا حبّيت كتير.

أجابت.

عمّتي عَنست. حَبلت قبل أن يلمع خاتمها في إصبع يدها اليسرى. كانت تحتفظ به في يدها اليمنى عندما علمت أنّ حبّهما – أو حبّها – تكوّر في رحمها وبات يهدّد بفضيحةٍ مجلجلة. داهمها القدر وأصبحت مضغة ليّنة في أفواه من يقتات على حصائد الألسنة وفُتات الغير.

لم يؤمن أنّ غيره لم يداعبها. عدّها جسدًا يسلّم نفسه للهواة. فمنطق العيب والحرام، من وجهة نظرهم، هو مقبرة مستعدّة دائمًا لاستقبال أجساد النساء في ترابها وحفلات مجون الرجال فوق أضرحتها. لم يخطر له أنّها قدّمت له ما لا يمكن أن تمنحه لغيره. انتزع منها

مشاعرها وبذر في أغصانها ألف سؤال. زرع بين فروعها شهوته ومتعته وعبثه وغثيان دقّات قلبه العاطل من العمل وعواطفه المُستقيلة.

تألّق برق السماء في تلك الليلة وبدأْتْ تردُّ عليها الذكريات. ألصقتُ وجهي بالنافذة لأشاهد المطر الهاطل بسلاسةٍ وأمتدح رومانسيّته لعلّي أخفّف حزن عمّتي الذي لا يجوع لابتسامة، لكنّها اغتاظت وانتهرتني أن أسدل الستارة محرّكةً يديها بطريقةٍ عشوائيّة...

– لا أرى فيه معالم الرومانسيّة التي أسمع عنها من العشّاق. كلّ ما يراودني عند سماع كلمة مطر هو الرَشح.

تغيّرتْ عمّتي...

غيّرها المطر...

6

غادرتُ لبنان بكذبةٍ في عام 1992 الذي، كما يبدو، لم يكن عامًا Annus Horribilis على الملكة وحدها، وسرجتُ جيادي إليه من جديد بكذبةٍ أكبر وأكثر أناقة في عام 2012.

في ذلك العام، استنشقتُ للمرّة الأولى هواء بيروت الساحرة والمزدحمة بسكونٍ غريب، بعدما حالت الغربة بيننا لسنوات. كنتُ قد نسجتُ الوطن خيالًا في أحلامٍ ارتسمت فجأةً أمامي حقيقة.

طاردني طيفه بإصرارٍ أغراني لتخطّي مخاوفي التي حاولتْ والدتي زرعها فيّ. تركتُ جحود لندن وقسوتها. ارتميتُ في ضبابها لسنواتٍ

طوال. كنت ضحيّة إسار مدينةٍ نزحتُ إلى شوارعها المرصوفة بوهني رغمًا عنّي.
أجهدتني الغربة وكبّلتني لندن بين يديها سجينًا ضالًّا ينتظر حكم البراءة عن ذنوبٍ لم يقترفها. عَطِشتُ إلى وطني، كنتُ مشغوفًا بلبنان وسماء لبنان وطُرقات لبنان، العريس الأرمل... التَعِس، الفرِح، الشامخ، الرافض للانكسار.
كم أحببتُ بيروت التي لم أزرها يومًا!
عند عودتي من رحلة الهجرة الطويلة هذه، أقمتُ في شقّة عائلة والدتي في الأشرفيّة. هُجِرَ المكان منذ أن غادَرَته جدّتي، بريطانيّة الجنسيّة – لبنانيّة الأصل، إلى لندن، حيث تُوفّيت بسبب تشمّع الكبد. أدمنت – رحمة الله عليها – الكحول. اعتادت قصّ شريط نهاراتها بكأس الويسكي التي لم تكن تفارق يدها حتّى تخلد مجدّدًا إلى الفراش.
بعد سنةٍ واحدة، أصيب جدّي البريطانيّ في بيروت بجلطة في الدماغ قهرًا عليها، ولحق بها. لم تتسنَّ لي رؤيتهما. رحلا إلى هناك قبل أن آتي إلى هنا.
كانت أيّامي الأولى في بيروت مملّة وأبطأ من

غراب نوح. خَلَت أجندتي إلّا من بعض المواعيد مع من تعرّفتهم في لندن وعادوا قبلي إلى لبنان، وبعض أقاربي الأحياء. هؤلاء الذين لم تلتهمهم نيران الحرب الأهليّة ومقابرها ولم تصنع لهم أخاديد النسيان أجسادًا نحاسيّة تتوسّط الميادين وتراقب موت الشعوب بتأمّل التماثيل البوذيّة.

مَرَّت الأشهر الأولى برتابةٍ وضيق. سَرى الملل في عروقي قبل أن أنهمك في العمل في المنظّمة الدوليّة للهجرة مترجمًا فوريًّا. هذه الوظيفة أثقلت كاهلي ببذخ. نبتت في عينيّ مآسٍ جديدة ملأت سخافة أيّامي وفراغها بحزن القِصص التي لم تُكتب صفحتها الأخيرة بعد ولم نسمع عن بداياتها من قبل. أن تُعيّنك منظّمة تهتمّ باللاجئين أو المهاجرين مترجمًا يعني أن تُرجَم يوميًّا بنوازل نفوسٍ هُجِّرَت من أجسادها.

تقلّبتُ بعدها في وظائفَ عديدة، لكنّني لم أتخلَّ عن مهنة الترجمة. كنتُ أسرق من بوح المعانين دمعًا سخينًا أستغلّه في تثليج نيران صدري.

لستُ من هواة الاحتفالات الليليّة. ومنظر فتيات البغاء اللاتي يفرشن أجسادهنّ على الأرصفة لا

يغريني. لذلك كانت سهرات السبت والأحد في بيروت غير مجزية بالنسبة إليّ، ما جعلني أعتكف في المنزل عندما يقرّر من أعرف الهرولة ليلًا للّهاث خلف النساء. صرتُ ألمح في عيون بعض الأصدقاء اتّهامات الشذوذ الجنسي لي. عليّ معاشرة أيّ فرج تائه في الشوارع لأُقَلَّد بنيشان الرجولة.

الرجل – في المنطق الشرقيّ المُجانف للواقع – يعني أن تُحوّل قضيبك إلى رصيفٍ لكائنات الليل المُتعبة. جلسة ورشفة، فقضمة، ستركد ريح الشهوة وستُعلّق الأوسمة.

طرحوا أسئلةً عديدة عن لهجتي العربيّة التي تستحي من تكسّر حروفها، وجواز سفري البريطانيّ المنافس لآخَرَ لبنانيّ ينام في جيبي. لم يقتنعوا بعروبة اسمي مذ أن تزيّن بلقبِ عائلةٍ غريب لم أجرؤ على تغييره رغم علله. على ما يبدو ليس عربيًّا، إغريقيّ ربّما. بتُّ أكره رؤيته في بطاقتي الشخصيّة كما أكره رؤية ملامحي الأجنبيّة وعينيّ الزرقاوين في عيون الناس وفي مرايا منزلي.

وعن اسمِ أمّي العربيّ الذي لم تختره عند ولادتها فرمته لاحقًا في الهولوكوست

واستَعمَلَت اسمًا سنسكريتيًّا ناب عنه وآودَعَتهُ لسانَ من تعرف، فهذه حكاية أخرى يطول تشريحها.

رباعيّة الجنين المُلثّم

(صفعةُ أمومة)

وعندما أجهضت السماء قنابلها،
غرقت الأرض بالدماء.

1

«دمعتان حائرتان تقفان في عينيَّ، لا هما تعودان أدراجهما فتطمران ما تبقّى في الذاكرة من أفراح عابرة ومؤقّتة، ولا هما تنزلقان على خدّيَّ فيكون فيها قليل من السلوى، ربّما يصهران هذه الغصّة الواقفة كفضيحة في جوفي!»
طارق بكاري (نوميديا)

لا تصدّق كلّ ما تراه، لطالما كانت العيون أصدق الأفّاقين. فالرسّامون كُثر، والإفك واحد: لوحة.

وصلتُ إلى المطار عند العاشرة والنصف صباحًا وكان موعد وصول طائرة والدتي الآتية من لندن بعد نصف ساعة. هذه زيارتها الأولى للبنان في هذا الوقت من السنة. فقد اعتادت قضاء فترة عيد الميلاد وليلة رأس السنة في سويسرا مع أختها وزوجها الاسكتلندي وأولادهما. السَفَر

فصلٌ مقدّس في نشاطات حياتها ولبنان محطّة إلزاميّة على جدول مواعيدها. تمكثُ فيه شهرًا أو أقلّ ثمّ تُكمل رحلتها أو تعود إلى المملكة.
شُدّت أفكاري وغمرتني مشاعرُ مضلّلة وأحاسيسُ غريبة. فيضٌ من الأسى والانقباض اجتاحني وعرّاني ورضّ وحدتي عندما رأيتُ الواصلين يعانقون ذويهم في قاعة الوصول. لم ألتقِ والدتي منذ أن أوصدتُ باب لندن نهائيًّا قبل عامين ورجعتُ إلى لبنان.
قرّرتُ أن أبتاع لها باقة ورد اعتقادًا منّي أنّها فُضلى الطرق وأكثرها لباقةً لاستقبال رعايا المملكة.
أريد معانقتها كما يفعل هؤلاء، لعلّها تتعلّم فصاحة اللقاء بعد الغياب وتقرّر أن تكون والدتي. لا أذكر أنّها احتضنتني أو قبّلتني يومًا. لم تكن الصدر الذي يؤويني. استَسهَلَت الأمومة واستعاضت عنها بباوندات كانت تودعها في رصيدي المصرفيّ كلّ شهر. هكذا اعتادت استنزاف عواطفها الماليّة.
كيف لي أن أشرح لها أنّني لم أكن قادرًا على معانقة أموالها والبكاء على كتفها؟ هل تفهم أنّني كرهتُ عُملاتها وكنتُ خائفًا من أن أكرهها

هي أيضًا؟ أو ربّما فعلت. لقد بَذَرَتْ في صدري شوكًا فأنّى لها حصد الثمر؟

كم من الوقت ستحتاج لتدرك مدى خيبتي بها في كلّ مرّة انتظرتُ فيها شيئًا منها ولم أجد في صندوق بريدي إلّا فصائل أرقامٍ وحسابات متعلّقة بما ترسله لي من أموالٍ تكدّسَت في جيوبي وباتت مرعى ولا أكولة.

وبلا مقدّمات، ابتأستُ وانهَلَّت عيناي وأنا أتذكّر مدرسةً داخليّة عشتُ فيها في لندن وأنا لم أبلغ العاشرة. تذكّرتُ غرفة نومي والطلبة والماميرات والمعلّمات وساحةً ضيّقة كنتُ أعدّها ثاني أكبر بقعة في العالم بعد تنّورين.

وَصَلَت الطائرة وبدأ المسافرون الخروج. لا حاجة للبحث عنها، ستكون بارزة. تعرفُ تمامًا كيف تتميّز عن الآخرين وكأنّها نجم سهيل أو فهرٌ ألماني.

كفكفتُ دموعي ورطّبتُ وجهي بفرحةٍ زاهية وانتصبتُ في صالة الاستقبال. حملتُ قطعةً كرتونيّة كتبتُ اسمي عليها. عامان كفيلان لشطبي من سبّورة مخيّلتها. أردتُ استفزازها وإثارة غضبها بهذه الخطوة.

نكزتني من الخلف بمنقار إصبعها الأحمر لكنّها

لم تستقبلني في أبهاء صدرها ولم تشدّ على يدي كما توقّعت، وكأنّني لم أغب عنها. تبرّأتْ منّي وجَحَدتني ابنًا وآلمتني بمصافحةٍ هزيلة الروح ويابسة الحسّ أنجزتها بسرعةٍ ضوئيّة كمقاتلٍ أجبرته هدنة لن تدوم طويلًا على ملامسة غريمه وموادعته. لم تعلّق بكلمة على اسمي المكتوب على القطعة الكرتونيّة، ربّما لم تلمحها من الأساس.

لم تندّ وجهي بقُبلةٍ، أحجمت كعادتها عن ذلك وفقًا لدواعي التقبيل الاجتماعيّة وخوفها المستديم من التقاط فايروس الحمّى وأنفلونزا الطيور والخنازير وسائر الأدواء الأخرى.

لم ترقها حزمة الورد المنصولة اللون بعض الشيء. ابتَسَمَت بفظاظةٍ وجَذَبَت اللون الأبيض. أفصَحَت بازدراء عن حبّها للورد الأحمر ردًّا على حزمتي البيضاء. قالت إنّ الورد الأبيض يُقدّم في حفلات الزفاف ولا يتكافأ مع خُلق استقبال المسافرين في المطار. ما برِحت متعجرفة ومتغطرسة، لكنّني أبليتها عذرًا. الذنب ذنبي، في المرّة المقبلة سأخضع لدوراتٍ تأهيليّة مكثّفة لاستقاء بروتوكول تقديم الورد الموائم لمراسمها الملكيّة.

الحمد لله الذي بفضله تجاوَزَت صدمة الورد الأبيض التي كادت تجلب لها سكتة دماغيّة، لتتذمّر بعدها من الإجراءات الطويلة في المطار والتأخير غير المنطقيّ للركّاب.

– لم أكن قادرة على زيارة بيروت في العامين الماضيين، وضع لبنان مخيف. لقد خسرتَ الكثير من وزنك. أأعياك البؤس هنا بعد الرفاهية التي تنازلتَ عنها؟ سيعاني كثيرًا من يترك رغد الحياة في لندن ليعيش في دولةٍ عربيّة قذرة.

قالت وهي تخلع قفّازها الأسود من يدها اليمنى بلُغتها العربيّة، المصابة بسرطان الرئة، التي طغت عليها لكنة بريطانيّة كلاسيكيّة ذكّرتني بحوارات الملكة الرسميّة مع المرأة الحديديّة إبّان حرب الخليج على العراق.

أدهشني كلامها ولم أستصبه. لم يلفت أحدهم انتباهي إلى نقصان وزني رغم تصيّدهم الدائم لمظهري وطريقة كلامي والمسافة بين خطواتي. كان عليّ أن أقدّم لها تفسيرًا منطقيًّا يسوّغ «النقصان الشنيع» في وزني الذي لم يتغيّر.

– إنّها فقط ضغوط الحياة وشواغلها.

أجبتُ بطواعية ممتثلًا لما تقول وتعتقد. هكذا

آكسبها وتنتهي الجولة لمصلحتي.

نَظَرَت صوبي شزرًا بعدما تخلّت عن نظّارتها الـ«شانيل» التي غطّت سطح أنفها ثمّ تَمتَمَت بملامحَ متجهّمة قطّبها الانزعاج وهي تبحث عن علبة السجائر في حقيبة يدها السوداء المفروشة بشالٍ صوفيّ رمادي ظننته سجّادة كاشان عجميّة.

– لا يعرفُ شيئًا عن الحرب الأهليّة والتهجير والفقدان ويتحدّث بالضغوط.

قالت متبرّمة.

– لكنّكِ بريطانيّة الأصل. لم تخسروا شيئًا هناك. الحرب لم تمسَّ المملكة. الحرب حوَّلَت لبنان إلى صيوان عزاء لم يُفض ومناحة لم تصمت. يومها كان بلدكِ يزدهر ويتقدّم.

أجبتها بامتعاض.

أشارت إلى الجبال الواضحة من مدخل مطار بيروت وقالت بعد صمت وقد انتَفَخَت أوداجها: «ولِدتُ هناك وتَرَعرَعتُ فوق تلك الجبال، أتراها؟»

– نعم... أراها.

أجبتها بتأفّف.

– تغيّر جسدك ووقاحتك لم تتغيّر. لم تنسَ أصولك العربيّة. فعلًا العِرق دسّاس.

بس تهكي مَئي. your language

قالت بحنقٍ والشرر يتطاير من أطرافها والسيجارة الرفيعة غير المشتعلة ترقص بطريقةٍ بهلوانيّة في سيرك فمها.

– لكن أنتِ تغيّرتِ.

– أصبحتُ أجمل؟

– بل أقسى.

– وأنت أصبحت أوقح.

تعاميتُ عن كلامها وشكرتها على مضضٍ. حافظتُ على شعرة معاوية بيننا وشهرتُ انصياعي واصبطغتُ بالإجابة الأقرب إلى قلبها لأختم حربنا الأهليّة بشمعٍ أحمر مفاده الكلمة الوحيدة المُنجدة والقادرة على حقن الدماء. إجابتي ستخدعها وستجبرها على الصمت، وقطعًا سأحصل على نقطةٍ أخرى في هذه المنازلة الهزليّة.

– الماء هنا غير معقّم والهواء ملوّث والطعام غريب عجيب، بالطبع أنت مريض.

ثابَت إلى نِصابها وأبصَرَت نبرتها المتّزنة النور بعد حوارها الموبق وغضبها البلشفيّ المصطنع الذي اعتادت استعماله في مجمل حواراتها السفسطائيّة معي.

وعلى نحوٍ متوقّع، لم تُبدِ اهتمامًا لقولي المُنتظر. صمّت أذُنيها بأقراط عدم الاكتراث وتوجّهتْ إلى سائق الأجرة قبل أن أبوح بسكوتي غير المهم بالنسبة إليها. على أيّ حال، فقد وفّرَتْ على نفسها سلسلة الأكاذيب الارتجاليّة التي ادّخرتها في أثناء خطابها الزائف عن مشاعرها المتجذّرة وحسّها الوطنيّ الراقد بسلام الحرب الأهليّة في خوالجها البيروتيّة.

2

تغزلُ دومًا ما أجهل، وتخترع قِصصًا عن احتقان قلبها بمعاناة الحرب. وكأنّها كانت مع لبنان قلبًا وقالبًا، جسدًا وروحًا.

تَمَنَّعَتْ عن العيش بين أحناء بيروت حتّى بعد بلوغ الحرب الأهليّة سنّ اليأس وانقطاع طمثها والاستقرار النسبيّ في أوضاع البلاد، لكنّها تتحدّث بها بثوريّة فاقت شراسة كفاح عذراء أورليان الفرنسيّة ونضالها في وجه الإنجليز. الأنكى من ذلك محاولتها في كلّ زيارةٍ لها للبنان، أو «بلاد الحمّص والفتّوش وشعب البابا غنّوج» كما تختصر حضارتنا وتحطّ من تاريخنا، استمالة الجبل المقابل للمطار واستعماله رمزًا

للبنانيّتها الوهميّة. لها قدرة مقزّزة لا تُضاهى على التصحيف والتلاعب بالألفاظ وابتلاع الحقائق والتغشّي بوطنيّةٍ لم تُفصّل لها.
تزعم أنّها تَرَعرَعَت فوق تلك الجبال رغم ولادتها وسكنها في مِنطقة الأشرفيّة في بيروت. خُيِّلَ إليّ أنّها ما سَهَت يومًا عن لبنان وعن حلب الأبقار على أنغام «نسّم علينا الهوا»، لكنّها في الواقع لا تعرف فيروز ولو عرفتها لما أحبّتها. كانت من عشّاق إديث بياف وفرانك سيناترا وجورج مايكل وميراي ماتيو وداليدا وتشمئزّ من الأطباق العربيّة الدسمة. تأكل التبّولة فقط وتلفظها «آبولا». لكنّها، بحسب قولها، وُلِدَت وتَرَعرَعَت فوق جبالٍ كانت تزورها صيفًا للهرب من الحرارة والرطوبة المرتفعتين في بيروت.
طيلة مكوثها في بيروت، عليّ أن أتحزّب للغرب المنزّه عن كلّ رجسٍ، وأمجّده وأكسسواراته، وأن أقف في طليعة التبجيل لملوكه ورؤسائه وأن أُكثر من ضروب مديحهم وأستفيض في غمس الطعنات النجلاء في جسد الشرق الأوسط – الذي كان مهدًا للعلم ومحجًّا للعالم وبات خليّةً لطواقمَ من الصعاليك – وفي كلّ كائنٍ حيّ وغير حيّ يتنفّس في ضمن حدوده، عربيًّا كان أم من

قوميّة أخرى.

الجبال هنا طائفيّة والشوارع متخلّفة والقمر يتعاون مع النجوم ضدّ الشمس وثمّة توتّرات إقليميّة بين البحر الأحمر وبحر العرب بخصوص قضيّة الـ« DNA» المتعلّقة بنَسَب مضيق باب المندب لأحدهما.

حتّى لو كان الشرق كتابًا كامل الأوصاف بلا قرين لقَرَّظَت حروفه ولَعَنَت مؤلّفه ودار نشره والقرّاء.

لطالما تَحَدَّثَت على مسمعٍ منّي – قبل قراري العودة إلى لبنان – بعدم استقرار الأوضاع الأمنيّة في الشرق الأوسط لتعيد أمجاد البلايا التي كربت العرب ومَعَّنَت في لجاجتها وأطلَقَت ساقيها لحربٍ مصراد أزهَقَت أرواح المساكين المُكبّلة بالدماء المتعطّشة لأبدانهم. أرادت أن تعجّز رغبتي وتثبّط عزيمتي عن أيّ مخطّطٍ للعودة إلى الوطن قد يطوف في رأسي. لا تتوانى عن استغلال الفُرص لتطلق لسانها الخاطل في العرب وتَهجوهم بحبلٍ لا ينقطع من الشتائم. تقصفهم بضراوة كأنها طيّارٌ أميركيّ قصف ملجأ العامريّة في بغداد وشوى من فيه ولم يهتز. كانت تحاول طمس جذوري في تراب

لندن لتزرعني شجرة إنجليزيّة تخجلُ من ثمارها العربيّة.

وُلِعَت بمراقبة أخبار لبنان وبواكير مصائبه. كانت دائمة التيقّظ لمداهمة الصحف وتجسّس التلفاز باهتمامٍ شديد لتحرز قصب السبق في إبراز أيّ قصورٍ في أيّ مَيدان. تتصيّد الزلّات وتتحيّنها لتحطّ تركيزها وتفرط في نقد مجريات الأحداث من خروقات أمنيّة، مشكلاتٍ نيابيّة، أزمة نفايات، جريمة قتل في مكانٍ عام، تظاهرة سيّئة التنظيم – أو السمعة –، فضيحة سياسيّ فاسد، سياحة متأخّرة أو نظام تعليميّ فاشل. لم توفّر جهدًا لتقبّح وجه الشرق الأوسط ولتزرع كرهها للعرب في نفسي لتذكّرني بعدها بأنّني صانع قرارات فاشل أضع حياتي على شفير الهاوية وعليّ البقاء في لندن، قِبلة صلاتها وهيكل كنيستها وأرض الميعاد في لاهوتها، لأكون في مأمنٍ من جُرثومة العالم الثالث.

هكذا خَطَّطَت وتَكتَكَت لتدعيم غايتها وإدارة دفّتي لوجهةٍ تروق مُراد أشرعتها، لكنّني لم أصدّق ما يلوكه لسانها عن لبنان.

كسرتُ البيضة التي رَقَدَت عليها لسنواتٍ في قنّ المملكة. تركتُ لندن وخرجتُ من خرم إبرة

والدتي التي فتقتني وخاطتني ثوبًا جديدًا لاءمها وخنقني. غادرتُ لئلّا أُدمج بممتلكاتها البريطانيّة.

فكّرتُ مليًّا وقتها وتحرّزتُ من قرار عودتي إلى لبنان بعد كلّ تلك السنوات التي أمضيتها في أوكار لندن. لكنّني لم أتخبّر وقتها الوضع المتأزّم في المِنطقة. غابت عن أجندة حساباتي نسب البِطالة المتفشّية في حانات شارع الحمراء. لم أراجع أرشيف السيّارات المفخّخة التي قتلت ما قتلت وحَطَبَت ما حَطَبَت من ناسٍ أحرَقَتهم لاحقًا. غضضتُ التفكير في الاغتيالاتِ المتكرّرة لرجال السياسة، لم تُخِفني نشرات الأخبار. فَشَلَت في بذر الخوف داخلي. لم أكن معنيًّا بكلّ هذا وعجز كلّ شيء عن ردع رغبتي. عزمتُ على مغادرة لندن والعودة إلى وطني لأفقأ الدُمّل وأقطع أوردة قلقي وشكّي باليقين، ولو كان يقينًا لا يُحمد عقباه.

كنتُ أقدّمُ رجلًا وأؤخّر أخرى خوفًا من فقدان الحَلبتين، حلبة وطنٍ عشتُ فيه وحلبة وطنٍ عاش فيّ. كنتُ أكسّر صنم الخوف من مغادرة منزلي في لندن لأبني له معبدًا بعد أيّام في بيروت.

خرجتُ من مكمَني رغم معارضة الجميع لي.

سأجاهر بألمي ولن أخفي على أحدٍ أنّني أول من عارضني، كما والدتي المحاربة الشرسة في معاركَ عاتية نَشَبَت بينها وبين العرب. كانت حسيكة الصدر تجاههم، شاهرةً سيف ضغينتها في وجههم، وأوّلهم زوجها – أو والدي إن صحّ القول –.

حملتُ حقائبي وشتاتي ووصلتُ إلى بيروت. تأسّفتُ عن غيابي وقسوتي. بكيتُ كثيرًا يومها وعانقتها حدّ الوجع.

3

كنّا، أنا ووالدتي، ننتظر سائق الأجرة الذي سيقلّنا إلى المنزل وسط زحمة لهجات ولغات خانقة وضجّة عصافير نابية، عندما بدأ المطر العربيّ، بمنتهى الوقاحة، دقّ نواقيس السحب فوق رؤوسنا، ضاربًا عرض الحائط وطوله وجميع أبعاده بمراسم وكلاسيكيّات الترحيب بالأجانب. لم يحسب أنّ والدتي المُتبذّخة قد نسيت مظلّتها الـ«لوي فيتون» في لندن التي بثمنها تستطيع إعالة عائلة نازحة وانتشالها من الترنّح فوق شوارع العوز، لمطاردةِ لقمة تائهة في فمٍ ملآن أو للفوزِ بكسوةٍ هاربة من سيّارة داعرة قرّر أصحابها تحويلها إلى سريرٍ متنقّل لمعاشراتهم

المشبوهة.
في أثناء عودتنا إلى المنزل كنتُ أجلس عن يمينها مستغرقًا في التفكير بما لا أعرف. وضعتُ الترس خلف أبوابي لأتوقّاها وأتجنّب الحديث إليها لئلّا أصطدم بفجاجتها من جديد. أحاديثنا الموسومة بنهايةٍ شبه معروفة تفتقرُ إلى أرضيّةٍ حواريّة مشتركة.
سألتني عن حالة الطقس في بيروت خلال فترة الأعياد. بَذَلَت وسعها لتراب هوّة الصمت الأدكن بيننا، لكنّها لم تتوصّل إلى دليلٍ دامغ عن الطقس، فقد سألَت شخصًا لا يعي مخاطر ثقب الأوزون ولا يُرتّبُ مواعيده وفقًا لبيانات نَشراتٍ جوّيّة لم يواظب يومًا على إرهافِ أذُنيه لسماعها.
كان الطقس بالنسبة إليّ وليد اللحظة ووليد الموقف وصاحبه. عَلاقتي بالنشرات الجوّيّة لا تختلف كثيرًا عن عَلاقتي بوالدتي ولندن وفصل الشتاء والأعياد وسيّارات الأجرة ومن فيها، واللّائحة تطول.
عناوين نشرة الأخبار في الراديو تلخّص الحرب على العراق والحالة الأمنيّة المتوتّرة في سوريّة ولبنان ودول الجوار، أمّا التفاصيل فتغوص في

الوضع المتأزّم في بغداد وبعض المحافظات العراقيّة الأخرى وفي بيروت.
قرائن الهلاك تلتهم شوارع بغداد الكادحة الموشومة بجنازير الدبّابات الأميركيّة. تجزل عليها أمطار الرعب الزهيدة وتسرق فرحة العيد الهاربة من اضطهاد السيّارات المفخّخة التي ترقص على رنين نزف الدم في وريدٍ يشتفُّ نفطًا لن ينضب. الوريد ذاته الذي يجمع جثث العراقيّين للتنكيل بها ومصادرتها أو ربّما تهريبها في براميلَ سُرق نفطها وضُخّت بالأتربة.
والدتي تُشعل سيجارتها الأولى بعد الألف من نيران واحدة من تلك السيّارات التي انفجرت في الكرّادة والكاظميّة والسيديّة وتخنقني برأيٍ صلب يُرجّح أنّ الشعب العربيّ يتوقُ دومًا إلى القتلِ والخراب.
«لا يفقه العرب إلّا بالاقتتال»، رشقتني بفتوى جديدة.
هَمَّشَت بعد اللتيّا والتي برجعيّة وقسوة ملايين الضحايا من ذوي النسل غير المحدّد في العراق بعد موجة الطائفيّة، واختَصَرَت المجازر المُرتكبة بحقّ سوريّة ولبنان واليمن وفلسطين بجملةٍ مُجحفة. غاب عنها من مات قهرًا وجوعًا

وظلمًا واختناقًا في براميل النفط تارةً وتحت البراميل المتفجّرة تارةً أخرى.

فعلًا بعضنا لا يفقه إلّا بالاقتتال.

ففي سوريّة نسوة يحاربن الخوف ويحلبن الحياة من أثداء الموت ليطعمن أطفالهنّ. وفي فلسطين رجالٌ يَطْلون ضياعهم بآخر ويُخرسون قلقهم على مستقبلٍ مجهول بأملٍ أكسح تشوبه ألف علّة. وفي اليمن يستمدّون قوّتهم من ضعفهم لعلّهم يفلحون في كتمِ جروحهم المُلتهبة. وفي العراق فتياتٌ يبحثن عن النجاة في أقصاع السيوف ليحاربن مجتمعًا خوى إلّا من عاداتٍ بالية تحوّلهن إلى مقتنياتٍ مجّانيّة في مزاد ذكورة داعش. وفي لبنان شبابٌ تائه فوق أرصفة الطائفيّة.

أطفالٌ يحاربون هستيريا الفوضى ويغامرون بحياتهم المزدحِمة بالمنعطفات ويسبحون في برك الدم ليصلوا إلى مدارسهم ويمجّدوا أناسًا أخفقوا في صون أرواح عوائلهم. يذهبون إلى المدارس ويتعلّمون مِن كُتب الخراب المسطّرة بروايات الحرب. هكذا قَرَّرَت بعض الدول تثقيف أطفالنا.

معاركُ شوارع وحروبٌ أهليّة من دونِ جبهات

وعصاباتٌ تتآمر في الداخل والخارج وحائطَ مليء بالشروخ لا تدخله فسحة ضوء طائشة. محابر الدم لن تجفّ، فلأوراق الحياة العديد من القِصص التي لم تُدوّنها أقلام المدافِن بحبرها السريّ بعد.

كلّ هذا ولا تزال تلك الدول غليظة العريكة. تعاند قرونًا هائجة خلّفها ثور اليأس الناطح للحياة كلّما رأى طيالسة الدم ترفرف فوق العراق تارةً وفوق لبنان تارةً أخرى، فسوريّة وليبيا وفلسطين واليمن ومنزل أحمد وجان وعلي وعمر وهاكَوب.

كانت والدتي على صواب. لا نفقه إلّا بالاقتتال.

مِن العبث محاورتها في القضايا الشرق أوسطيّة، فحتمًا ستجد مَنفذًا أحدبَ يغذّي كرهها الممنهج لهم.

وصلنا إلى المنزل وترجّلنا من السيّارة. ابتَسَرَت ساقها فوَقفَت قليلًا قبالة البناية التي سَكَنَت وعائلتها فيها قبل الحرب. ارتَدَّت إلى الوراء ونَظَرَت إلى المدخل. راقَبَته مليًّا وجاهَدَت في انتشال رأسها لتنظر إلى الجزء العلويّ من كومةِ ذكرياتها.

قبل عودتي إلى لبنان، اعتادَت المكوث في فندق برازيليا في مِنطقة الحازميّة في أثناء

إقامتها في بيروت بدلًا من البقاء وحدها في هذا المكان. هُجر المنزل لسنوات بعد وفاة والديها حتّى عودتي إلى بيروت.

لقوّة شكيمتها وجبروت جَلَدِها، لا تحرّك والدتي ساكنًا أمام هول تلاطم الذكريات.

رمقتني بنظرةٍ لا مأتى لها وأشاحت بنظرها على الفور. أوعَزَت إليّ بمرسومٍ ملكيّ مفاده ترك تساؤلاتي الغبيّة وطيّها في جيبي المثقوب لأحمل أمتِعتها الثقيلة وأمضي في إثرها كتلميذٍ مطيع تُذيّل الطاعة اعتراضاته.

4

كانت والدتي من المُبتعثين لإكمال دراستهم في طبّ الأسنان في ألمانيا عندما وطِئت عيناها وجه والدي للمرّة الأولى.

بريطانيّة - لبنانيّة، غضّة الإهاب، مِن عائلةٍ ثريّة، تدرس في فرانكفورت هربًا من الحرب الأهليّة في لبنان. ووالدي لبنانيّ من جذورٍ يونانيّة، يقيم أيضًا في فرانكفورت. يتعلّم ويعمل في مصنع لعب أطفال ويرسل المال بالحمام الزاجل إلى عائلتهِ المنتقلة حديثًا على ظهرِ القذائف وعبر مطارات القصف من تنّورين إلى بيروت. يريد العودة إلى وطنهِ قبل أن تخطف الحرب واحدًا من أفراد عائلته، أو ربّما كلّها، فمصطلح الحرب لا

يتلازم لفظيًّا وفعليًّا مع شحن التجزئة.

عندما ترك لبنان في سنٍّ مُبكّرة لاستكمال دراسته في ألمانيا قبل اندلاع الحرب الأهليّة، لم يتوقّع أنّه لن يعود إلى الديار مع شهادة في طبّ الأسنان فحسب، بل برفقةِ زوجةٍ أجنبيّة صهباء ممشوقة القوام ومُلتحمة الجسد ستغيّر سيرورة حياته وحياة آخرين.

كان خطيبها الأول مُعيدًا معهما في الجامعة. لم يتزوّجها، بناءً على رغبتها المجهولة الأسباب. لكن بالتأكيد ليس بسبب حبّها الأفلاطونيّ لوالدي، فهي لا تحبُّ أحدًا إلّا ظلّها في الظلام. أعتقدُ أنّها وجدت ضالّتها في والدي لأنّ عنجهيّتها الطبقيّة تحجر عليها الارتباط بشخصٍ يفوقها علمًا وثراءً كالمُعيد المحظوظ.

سَمِعتُ العديد من الموشّحات عن إعجاب السفراء بسليلةِ الحسب والنسب وعن أزليّة مجدها – وكأنّها تتحدّر من أسرة تيودور –، فحفظتُ رواياتها عن ظهر قلب. لا تملّ من سرد تفاصيل تلك اللوغاريتمات العسيرة التصديق وإبراقها. لا أعلم غرضها من محاضرتي عن تُرَّهاتٍ لا مسوّغ لها. تلتُّ وتعجن في أحداثٍ عفّى عليها الزمن وبصق.

كانت يومها تشعر بتعب السفر فَخَلَدَت فورًا إلى النوم دونَ الاسترسال في بانوراما قِصصها التافهة السرمديّة السَبك والشائعة الذيوع التي تعسّر عليّ فهم جوهرها.

أحسَنَت صنيعًا. كان ينبغي لي أن أتبتّل إلى الله لأنّه حباني بنعمةِ نومها إذ كنتُ على عجلةٍ من أمري. تركتها تسبح في أمجادها وغادرتُ المنزل نحو معرض الخريف في متحف سرسق القريب من شقّتنا.

قفزتُ من لوحةٍ إلى أخرى ومن قِصّةٍ إلى أخرى.

حَفِل المعرض بلوحاتٍ تافهة وألوانٍ متناثرة خرقاء كالجُمهور المصفوف قبالتها، يناقشها ولا يدرك شيئًا عن غباء ألوانها وتوحّد شخوصها.

يومها كان مزاجي في غيبوبة بسبب والدتي والزكام الذي يرافقني ملء جسدي طيلة فصل الشتاء. زادت لوحات ذلك المعرض شبه الفارغ من وتيرة انزعاجي فقرّرتُ مغادرة المكان والعودة إلى منزلي والاستمتاع بلوحاتي أنا ومتابعة مريم نور لأعرف الفرق بين الحنطة والشعير وفوائد العدس، ولأدرك أهمّيّة ملاصقة الأرض للتخلّص من طاقة الجسد السلبيّة.

أحبُّ لوحات منزلي كثيرًا. بعضها اشتطّ سعره عليّ وحصلتُ على أُخريات بأبخس الأسعار فلم أتكلّف إلّا بعض الباوندات التي تُعدّ على أصابع اليدين.

أقربها إلى قلبي لوحةٌ لامرأة نصف عارية مستلقية على الأرض اقتنيتها منذ سبع سنوات من رجلٍ اعتاد بيع الأنتيكا في كشكٍ صغير في مانشستر. سألته عن صاحب اللوحة فلم يعرف. وعندما طلبتُ منه أن يلفّها لي رفض معلّلًا ذلك بأنّ اللوحة لا تُلفّ لأنّها ليست كعكة. حملتُ اللوحة ومضيت. اشتريتُ كعكًا ولففتُ اللوحة بكيسه.

هربتُ من المعرض وعدتُ إلى المنزل. أويتُ إلى وحدتي وتترّستُ بها. لجأتُ إلى الشرفة لأستمتع ببيروت وأستلهم منها حزني وهي تسامر هوادي الليل المُنسدل وتتغزّل بالبحرِ ولَجَبِ عُبابهِ وتشعل سيجارتها الأخيرة قبل أن تخلد إلى النوم لتطفئها في حناجر المغرّدين عند انصداع صباح اليوم التالي. أمّا أنا، فلا أجيد مخاطبة البحر. أجلس قبالته بالساعات مرتديًا الصمت والاندهاش ومن حولي الرياح تستجهل الأشجار. ورغم عداوتي المعهودة مع روّاد

السجائر وقعتُ في غرام بيروت من النَفَس الأوّل ومن الخطوة الأولى ومن الخيبة الأولى.

بدأ صباح اليوم التالي بحوارٍ من نوعٍ فريد لا يعقب فائدةً عندما أخبرتُ والدتي عن فرصة عمل في دبي.

– ومن أقنعك بترك لبنان؟ والدك بالطبع! يحاول دائمًا سرقة ما أملك. لا يملّ من تدبير الألاعيب، خططه محنّكة. أقنعك بمغادرة لندن لكي يُغريك لاحقًا بالسفر إلى دبي فيصبح هو الأب الحنون العطوف الباحث عن راحة أولاده وأتحوّل أنا إلى ساحرةٍ شرّيرة تطير بمكنستها من بلدٍ إلى آخر هربًا من مسؤوليّاتها.

والدتي تناصب زوجها الكره، كالكره بين عائلتَي مونتيغيو وكابوليت، إلّا أنّها تماثله بشيءٍ وحيد: تبجّحها بكره العرب واستقذارها لبنان ونظرتها الفوقيّة له. يجوس أعضاء داعش بين زواياه، وبين الانفجار والآخر تتهاوى الصواريخ على المنازل والمحالّ التجاريّة. الخطف على الهُويّة يحوم في شوارع الأشرفيّة وأزقّتها، والحدود مغلقة وصافرات الإنذار تدبك على أنغام أغاني الشحرورة صباح.

ووالدي، من جهته، لا يزال يستغرب عندما

نخبره أنّنا نذهب في الصيف إلى البحر ونضع كريم حماية من الشمس ونسهر حتّى ساعات الصباح الأولى في البارات ونسكر ونرقص ونمارس الجنس مع عشيقاتنا وأنّ ثمّة العديدَ من المثليّين من الجنسين في لبنان يمارسون ميولهم في العلن.

– لم يعرض أحدٌ عليّ السفر إلى دبي. وجدتُ إعلان العمل بالصدفة في أثناء تصفّحي الإنترنت.

عافرتُ في إقناعها وفشلت.

– لا أرغب في أن تسافر إلى دبي ولا أودّ أن تبقى هنا في بيروت. البلد على كفّ عفريت ومهدّد بالضياع في أيّ لحظة. شقّتك في لندن موجودة وشقّتي أيضًا، تستطيع العيش معي إن أردت. عد إلى عملك وحياتك. اترك هذا البلد فورًا.

– بريطانيا وفرنسا على كفّ عفاريت بعدما طالتهما يد الإرهاب. أميركا وتركيا وكلّ العالم يعيش في أزمةٍ من نوعٍ خاصّ. هل لبنان الدولة الوحيدة المهزوزة أمنيًّا وغير المستقرّة في كلّ هذه المعمعة السياسيّة التي تهلك العالم؟

يلعب القدر لعبته دومًا وينتشلني من مواعظ والدتي ومناظراتها المُستعصية. أسدت مكالمة على هاتفها المحمول إليّ معروفًا ويَسَّرَت

مَهمّتي الشاقّة في التخلّص من هذا الحوار.

استمرّت بيروت في التدخين في زحامٍ غريب استطرد نشاطه في ذلك الصباح من نهاية الأسبوع. انضمّت والدتي إلى بيروت لتدخّنا معًا بلا بوادر صلح بينهما.

تركتُها في الخارج وتدحرجتُ إلى الـ«تيفي روم» كما تلقّبها والدتي.

نشرة أخبار الثامنة صباحًا بتوقيت غرينتش ونشرة كلّ الأوقات والأزمنة والأماكن بتوقيت الشرق الأوسط المعطّل.

أين الفاجعة اليوم؟

انفجار سيّارة مفخّخة في مجمّعٍ تجاريّ في حيّ الكرّادة وسط بغداد.

دخان سجائر والدتي...

ويا دخان انفجارات بغداد ويا قهر بيروت. يا قيح حلب ويا ثخن جراح غزّة ويا عباءة الظلم المحيطة بالقدس...

من قال إنّ الفناء نشرات أخبار؟

رباعيّة الجنين المُلثّم

(نقشٌ على الخربة)

الحرب...
لا تبدأ ولا تنتهي، لا تستمرّ ولا تنجلي.
عبثًا تحاول الاحتضار والخروج من زنازين الكفر.
تلهث بلا نشجٍ وتتموضع في وجهاتٍ وعناوينَ مجهولة
لأناسٍ ابتلعتهم دوّامة الأسلحة،
فما عاد لصداهم مقدرة على ردّ النحيب بآخر.

1

«إنّها الحرب...
نعم الحرب... الحرب... الحرب.
تلك التي تنشأ لأسباب مهما اجتهد السياسيون في رصفها، وزيادة أوزانها، لا ترتقي لتكون أسبابًا.»
أمير تاج السرّ (منتجع الساحرات)

تعاني الحرب مجاعة مدقعة. تنهش لحم الشعوب العربيّة، فريستها السائغة وطبقها الأشهى. هُم كابوس طموحها وملاذ ذخيرتها الوحيد وكأسها الرقراقة والمرتع المُسخَّر لدمويّتها وبربريّتها.

أمهَرَتنا الحروب موتًا لا ينتهي وبايَعَتنا على حبٍّ غير عذري. أصبحنا، بمباركة إخوتنا، أصحاب الأولويّة في كلّ مشاريعها المستقبليّة. نحن

ندفع والغرب يستثمر والجار يلحس.

وقع الموت في حبّ الشرق الأوسط مِن الرصاصة الأولى، مذ حينها اندَلَعَت شرارةُ قِصّة الوفاء بينهما.

خرجنا، أنا وعُصبة من الزملاء مع وفدٍ من الأمم المتّحدة لزيارةِ مخيّمٍ للّاجئين السوريّين في لبنان. لا أعرف عنوانه الدقيق. كان العلم اللبنانيّ بوصلتي الوحيدة هناك. أيقنتُ أنّنا في الحدود الجغرافيّة لوطنٍ ينكره الجميع وتعترف به خرائط الأطلس. كان غافيًا على رأس بناية مُعدمة الحال كسا الغبار جدرانها المترهّلة وكأنّها أزناد امرأة ستّينيّة. يستجدي العلم السماء نسمةَ هواء ويناجيها لتلفحه. يريد أن يرفرف قليلًا لعلّه يحلّق بعيدًا ويغادر البلاد، فيستبدل بورقةِ قَيقب كنديّة أو بنجمٍ أشقر، أو حتّى أسود، من نجوم العلم الأميركي، الأرزة اللبنانيّة. عندها سيتحرّر من قيودِ قفصهِ المستطيل وسيُنقّب بفأس العروبة عن جنسيّةٍ أجنبيّة. سيهجر البلاد كما فعلنا من قبل وسنفعل في الغد القريب، إن أتى.

هناك، بعد بعض عمليّات التجميل، ستُشفط دماء أنهاره وسيُحقن بسعادةٍ لم تُمنح له في بلاده. سيذيع الأسرار في صلوات الجمعة

وقداديس الأحد، وسيحكي لمنظّمات حقوق الأعلام عن مُكابداتٍ تركها معُلّقة فوق سارية لا تنتصب ولا تنجب المزيد من الأحلام. ستتصدّر الصحف عبارة «علمٌ يفضح وطنه».

يراقب العلم الجميع، يرصد ظلال وطنيّتهم ويتفيّأ بصمتها. هموم الأعلام لا تختلف كثيرًا عن هموم الشعوب. الجميع يحلم بالطيران.

أراد الوفد لقاء بعض العوائل النازحة إلى المخيّمات العشوائيّة ليكوّنوا مفهومًا ملموسًا عن معاناة الشعوب تحت جنحِ الحوائن وديكتاتوريّتها.

تَعَلَّقَت عَيناي بصحيفة الكائن الجالس عن يساري في الحافلة البيضاء المُجهّزة بجميع وسائل الراحة من مشروبات ومبرّدِ هواء وتلفاز صغير ودورة مياه، والمخصّصة لنقلنا من بيروت إلى هذا المكان العجيب. باغتني وعرض عليّ قراءة الصحيفة لأُبتلى بما ابتلته بلاغة الفواجع به، لكنّني رفضتُ عرضه وأخذتُ حقيبتي على ظهري كطفلٍ في يومه الدراسيّ الأوّل وغيّرتُ مقعدي متحجّجًا بضوضاء ذيل الحافلة.

وصلنا إلى الهدف وتفرّقنا في مكانٍ بدا كأنّه مقبرة جماعيّة.

المقابر خُلقَت للأحياء لا للموتى، كانت هذه الحقيقة الأولى التي تعلّمتها مِن العمل مع مَن يفترش الخلاء منزلًا. أرضٌ مُنفرجة الأطراف وأنفاسٌ مُكدّسة وكأنّها ضبائر فحمٍ مرصوفة في أشباه مثاوي الحياة.

في هذه المناطق لن تحتفي بمطاعمَ راقية يتقابل إلى موائدها رجالٌ ونساء بأطباقٍ فارغة يستمعون إلى الأغاني الفرنسيّةِ الوقورة، متقمّصين دور العشّاق صونًا لخرائطَ اجتماعيّةٍ فُرِضَت عليهم جيبًا عن جيب. لكنّك قد تتعثّر بصهريجِ نُفاياتٍ يبخّر المكان بأريجٍ يستفقده الناس إن توارى عن أنوفهم، أو بكائنٍ ليس بالضرورة حيًّا يطلب منك المال أو الطعام أو سيجارة أو ولّاعة ويرجمك بلسانهِ ويُشنّع عليك إن تجاهلتَ تضرّعاته غير الكافية لاستفزاز رحمتك.

قد تتشابك نظراتك المستوية أرضًا برمالٍ تلتحي بالأسرار وتزفّها لأيّ مارٍّ مهما كانت سخافته، أو بظلالٍ عمياء تستهترُ بقبلةٍ سرقها رائدُ ليل من جدارٍ مشقّق ظنّه حبيبته. قد يقتحم سمعك زعيق سيّارة تلاشت في زحام الخلاء أو فوضى كلمة انتهت قبل أن تحبو، وتَحَوَّلَت إلى

همساتٍ لا يسمعها إلّا قاذفوها وأنت، وإن كنت لا تسمع أو أحدهم أقنعك بذلك.

في ساحةٍ خضيضة تترجرجُ كرةٌ وحيدةٌ بعدما ناص جميع الأولاد عنها ارتيابًا من غيمةٍ خرساء قد تمطر عليهم بليّةً في أيّ لحظة. كفوف الأطفال الممتزجة بالطين والماء والعرق عالقة فوق جسد الكرة شبه الممزّق وإن عارَكَت العشب الميّت للتخلّص منها ومن مخلّفات اللعبة من شتائم الجمهور، وتوعّد الطرف الخاسر بالانتقام من المحبورين نصرًا في الجولة المقبلة، وأوراق شجرة غرقت ببول الفرق المتحاربة والمشجّعين، وبقايا حلوى وبصاق وعلكة كانت ملتصقة بمقعدٍ حديديّ سبّب آلام مفاصل لكلّ مرتاديه رغم صغر سنّهم.

الرغبة في النصر قادتهم إلى هذا الملعب، كما قادت غيرهم إلى ملاعبَ أكبر وأسلحة أخشن من ذراعٍ هائجة أو ركلةٍ طائشة على مؤخّرة الرابح في اللعبة.

تبدأ النهارات بالوجوه نفسها. أجسامهم كما ثيابهم وروائحهم، لا تتغيّر. حافلة قد تمرّ من هذا الشارع بعد السابعة صباحًا، أو ربّما عند التاسعة أو العاشرة، لا أوقات محدّدة في هذا الركن

المنزوي من العالم. قد يعدل السائق عن هذا الشارع إن صادف امرأة فاتنة – أو قبيحة، لا يهمّ، المهمّ أن تكون جسدًا بثقبين وثديين – تقف عند ناصية شارعٍ آخر.

2

شرعنا بمهامّ الترجمة لوفدٍ وصل لإبداء طقس التعاطف مع القِصص المرويّة على لسان لاجئين خرجوا من منازلهم ولن يعودوا إليها.

ستدمع عيونهم بالطبع وسترتجف أفئدتهم فور سماع تلك الحكايات. هذه الزيارات موسومةٌ بسيناريو مكرّر مملّ لفيلمٍ مصريّ قديم تخمّن نهايته بقراءة أسماء أبطاله في التتر.

كانت مَهمّة الترجمة هي الأصعب بالنسبة إليّ، فماذا عساني أترجِم وأيّ لغة أستعمل لنقل هذا البؤس؟ أخفَقت محاولاتي المُضنية في ترجمة آهات امرأة التهم قصفٌ عشوائيّ عائلتها ولم يشبع. تزحف إلى منزلها، تراقب

الأسرّة القاحلة لأولادها الخمسة. طبقاتٌ من تراب الغياب نَجَّدَت وسائدهم وزَيَّنَت شراشفهم وتركتها أكفنة عارية.

أخرى أجبرتها الحياة على حمل عبء الحرب وجلاميدها ومشي الهُوينا على مرارتها ونقمتها بعدما قُتِلَ زوجها تحت ستائر وأضواء المسرحيّات السياسيّة وذهب دمه أدراج الرياح ليترك لها من المشقّات أربعًا، كبراها لم تتجاوز العاشرة. وَقَفَت في وجه الأعاصير وصَرَخَت... كفى!

ملكة الأفعال هي الحرب، صادقة في كلّ وعودها. تصقل البشر دموعًا نذرفها بغزارة.

كيف تُترجم تلك الأوجاع والتباريح؟ ما وسيلة نقل قيحهم من لغتنا الأمّ والأب والأخ والأخت والجدّ والجدّة إلى لغةٍ بتول لم تمسّها أعضاء الحرب بعد؟

نَزَحَت لغتنا العربيّة وحروفها إلى مخيّمٍ مجهول. استقالت البوح عندما بَدَأَت مآسينا تستهجنُ وتستفرغُ جُملًا جديدة بكلماتٍ لا تُعرب ولا تُصرّف، لا قواعد تخنقها ولا حدود لأحرفها غير المألوفة.

تحدّثوا إلينا بلهجاتٍ لم أسمعها من قبل.

أمٌّ سوريّة من القراة ترتدي ملابس الوهم.

تقاسِمُ كؤوسُ مائدتها ماءً تغسلُ به عتبتها. جارتها تلقي السلام وتمضي. أخرى تتبعها ولا تلقي شيئاً، فَقَدَت كلّ شيء، حتّى لسانها. عتبة الباب تجفّ وعرق المرأة لا ينضب. يتمسّك بملامحها وكأنّه يتيم الوجه.

يصرخ الأبناء من الداخل مطالبين بوجبةِ طعامهم التَفِه. ينهض أحدهم ويتسلّق الأريكة ويصطاد صورة والده المشنوقة على الحائط بشريطٍ أسود عن يمينها. يزيل الولد الشريط لعلّ والده يعود ولعلّهم يأكلون.

تُمرّغ الأمّ وجهها في التراب، تلطمُ خدّيها ورأسها. تبتهل إلى الله أن يعيد سلوان إلى قلبها لتُقرّ برؤياه. لا أعلم من هو سلوان، ابنها؟ أو ربّما زوجها؟

فهمتُ لهجتها بجدع الأنف، فكيف لي أن أفهم جُملها المزدحمة بالصراخ والغارقة في دموعٍ طازجة لا تتعفّن. رغم ذلك، تقاسمتُ معها ألمًا لاً يرقأ. فدح المصاب هذا لا يحتاج إلى مختار الصِحاح لتَتَبُّع وقائعه، فنشيج أصحابه استقرّ في مدارٍ بعيد عن اللغة.

طَحَنَت رحى القصف مجاحرهم في تلك الليالي الغطشاء ولم يصدّها أحد. فاض محصول

الدم وراح يجورُ على الأحلام ويحصد الأرواح من بين أحضان الأمّهات والزوجات. رَحَّبَت أخدار السماء بروح سلوان الذي استقلّ سلّم الموت وأتمّ إقامته الجبريّة في الحياة.

لم تكن الكثير من الحلول متاحة وقتها. لا محيص للبشر عندما يُلقى بهم بين فكَّي الأسد. تصبح المخارج ضيّقة عندما تُقعقع صافرات الإنذار وتهلّ تباشير الضباء البشريّة لتبسط أنيابها.

قُرِعَت النواقيس وفَتَحَت السماء أبوابها فحاضت أوزارَ الرعب فوق مضاجعهم كما ينساب البول في قماط الرضيع.

رَزَّحَت أخبار الموتى يوميّاتهم. نبتت في كلّ منزلٍ دموعٌ مسمومة، انهلّت ولم تنتظر أحدًا ليرويها. شربت من اغبرارِ دماء متطايرة مجهولة الهُويّة والقوميّة والديانة والمعترك السياسيّ والزُمرة واللون، لكنّها تشابهت في شيءٍ يجهلونه أو يتجاهلونه. كلّها كانت دماءً.

رغم جنونها، وحّدتهم الحرب جميعًا في تشييعٍ يتيم لا قرار لهم فيه، تشييعٍ لم يصلّ عليه شيخٌ، وكاهنٌ لم يباركه، ما خرجَ على كفوف «الله أكبر»، وما كُتبَ فوق رأسه «هنا يرقد على رجاء القيامة». فالقيامة ليست مطلبهم. عاشوا ما

يكفي لكره الحياة ومن فيها، فقرّروا مصافحة الموت ومؤاخاة شياطينه.
«لاجئ» هو لقبٌ نِيطَ بهم بتآزرٍ غير مسبوق من الشعوب العربيّة وشعوب البلاد «الشقراء».
يفرشون طريقك بقشور الموز وينتظرون سقوطك لمعاقبتك على إثارة البلبلة في بلادهم. كان لاجئًا وتعثّر بقشرةِ موزٍ رماها مواطنٌ أصليّ فزُجّ اللاجئ في صفوف مسجّلي الخطر ودعاة الإرهاب.
سخيّة هي دراماتيكيّة مصطلحات الذلّ المُصدّرة إلى العرب من بلاد الحرّيّة سَبطة اليدين. يخلقون آلهة الحرب لتتناسل كائنات الفساد والإرهاب والوشاة الذين يبنون الزندقة بلبنة الإيمان في بلادنا. ولاحقًا، تتصدّع أنفسهم الغُيُر وقلوبهم الرحيمة شفقةً على الأمّة العربيّة العاجزة على الدوام عن بلوغ أشرعة السلام للإبحار والوصول إلى مرسى الطُمأنينة.
يفتعلون الرحمة ويندّدون بالوحشيّة، يؤسّسون المنظّمات والجمعيّات المُلمّة بحقوق الإنسان لحمايتنا – كشعوبٍ منكوبة – بلمسةِ حنانٍ من طابعٍ خاصّ جدًّا. وفجأة، وبلمسة الساحر الخارق يقفزُ الأرنب نصف المذبوح مُهرولًا نحو طواحين

الهجرة فيترك أرضه وثروته ليعتلفها – الرُحماء – لقاء ورقة لجوء حقيرة وقضمة من جَزرةٍ عَفِنة. وفي النهاية ستفوز سلحفاة خرقاء وواهنة بوطنهِ. ستطحن تاريخه وأمجاده مستغلّةً قيلولته الأبديّة في غرفةِ إنعاشٍ أقنعوه بأنّها الجنّة.

يُصدمون عند التعثّر بلاجئٍ في بلدٍ أجنبي يأكل قِطعةَ لحمٍ بيديه دون استعمال الشوكة والسكّين. عذرًا على خرق قوانينكم، أحدهم سرق سكاكينه قبل أن يعتاد استعمالها. قتلوا بها زوجته أو ابنه أو والديه أو شقيقه، أو ربّما قتلوه.

هل عرفتم السارق؟ هل عرفتم القاتل؟ هل عرفتم المُموّل؟

عذرًا على همجيّتنا...

فلتعذروا تخلّفنا يا جلالة الدول العظيمة كما نعذر تخلّفكم الأبديّ عن وعودكم.

على اللاجئ الانحناء شاكرًا للغرب الذي وفّر له موتاً آمناً بعيداً عن سيوف داعش، وعلى المُهجّر من منزلهِ ترطيب وجه المنظّمات الدوليّة بقبلةٍ، فقد بنوا له الأسقف الآوية له ولماضيه، أمَّا الإنسان والمنزوع عن كلّ المسمّيات الأخرى،

فله أن يبصق عليهم جميعًا، على من سقاه الحياة بقِربة الخديعة.
ظَهَرَت أمارات الاستغراب وثآليله على ملامح الوفد عندما بدأ وابل القصص ينهال عليهم وكأنّهم يجهلون بشاعة ما يُعادي دُستور الحياة. كأنّهم لا يعلمون كيف أنّ الغرب ينظر إلى نفسهِ كالدائن وبلادنا المَدين وأنّ الحرب هي قسمة الغرماء. كأنّهم لا يعون المآزق البدينة المُحلّقة فوق بيوت العرب كغربانٍ اعتَشَّت في أوطانهم الشاردة بلا مأوى مذ أن تَعَطَّلَت أجنحتها ودَخَلَت في سباتٍ أزليّ من الدم وأبَت الرحيل.
ضلّت الطريق، أجلسناها على بُسطنا فطاب لها الجلوس حتّى سَرَقَت البُسط وأجلستنا على الرماح. اتَّخَذَت من الخسّة أياديَ تمسّد وجعنا الصَلِف الذي لا يضمحلّ، يُحملقُ إلى عين الغدِ ويتحدّاه بوقاحةِ الأمس.
إن أردتَ معايشة الحروب دون أن تعتليك بندقيّة أو تنكحك رصاصة فعليك بمخيّمات المُبعدين عن الحياة وورثة الهلاك، هناك في قفر الدنيا حيث تتصاعد رائحة المذابح الخانقة لمسارب الهواء وتتضاءل فرص البقاء، لتكتمل دورة حياة شرنقة الرعب، فيغدو العجز حَوبة يوميّة يستفّها

المذمومون أوطانًا من ورق تُلفّ بها سجائر نزوات السادة، أصحاب البذلات المستوردة الذين يشهقون حياة الآخرين ويزفرون موتهم. يعبثون من عروشهم بمستقبل الشعوب المُعبّد ببقايا أمسٍ مفجوع، ولا مُكترِث.

3

وفي غمرة دهشتهم، كان ثمّة رجلٌ نجا من الموت لكنّه لم ينجُ من الحياة.

نكس الزمن رأسه وأرخَت السماء ليلها على نهاراته، يعصفُ بعينينِ واسعتين كفرجارٍ يرسم دائرةً حادّة على ورقةٍ سمراء الملامح يمتطيها شعرٌ يسطو عليه الشيب من كلّ جانب.

يقفُ الرجل بظلّهِ الخائر، وكأنّه فزّاعة طيور، قابَ قوسين من مقالب النفايات مستندًا إلى حائطٍ دخيل مُفعمٍ بالجروح ينزف تمرّد الشروخ على حالها الكسيف.

كان نحيل العود طويل الجثّة. أبدع البهق في نقش آثاره على وجههِ السابغ، ثمّ أتَت الحرب

ووضعَت رتوشها لتُكمل شحوب اللوحة. يراقبُ إيقاع المكان السفيه بهدوء الأحياء وصخب الموتى وصرير الجداجد.

البشر هناك أعلى من أشباه الخيم الميّتة والمزروعة في أرضٍ قفرٍ مفروشة على مدّ البصر بشجر الزقّوم، لا تأبه بساكنيها ولا تنجب لهم منازلَ قانونيّة تعترفُ بها سجلّات الدولة المزوّرة.

يُقبّلِ الكليل سيجارة ماجِنة كان قد اعتنق صروف مذهبها منذ سنوات. تسوقها يده المرتجفة مغشيًّا عليها في الأرض الجرباء التي لا تطرح إلّا شواهد القبور المُتحدّرة من سلالات التراب الرفيعة المستوى. يبكي الرجل دخاخينه بحسرةِ أمٍّ أكرهتها جوالِبُ الزمن على إجهاض من لا شرعيّة له في هذه الحياة. يستسلم لهروب الدخان من رئتيه إلى الخلاء المتحجّر. يسحق اللعينة بخفٍّ عتيق وبائس لا يعانق إلّا شعر قدميه وكأنّه طائرٌ مُسرول، وكومة من الأتربة المعتّقة بقصص من زَلَطَت مجاعة الحرب أحذيتهم. يمسح مخاطه بكُمِّ قميصه الباهت اللون. يتقدّم صوبنا بلا خطوات وكأنّه يُقاد إلى المنفى على طريق الجلجلة باحثًا عن مريمَ مجدليّة تمسح أوجاعه بقطعةِ قماشٍ لن تلتصق

صورة وجهه عليها، لأنّه بلا وجه.
عيناه تركضان وساقاه موثقتان بسلاسلَ حديديّة يرفس صدأ الرصاصِ مصيرها. يقفُ قليلًا قبالة الوفد، يصرخ بملامحَ وعرة ومتشابكة، يسرّح همومه بنظرةِ عتبٍ وينتظر صداها الأبكم. ذاق من حنظل الضيم والهوان حدًّا جَبَلَ منه أسطورة شبحٍ عتيق يتآكلُ في حزن الأضواء الصامتة التي تردع بزوغ أيّ صباحٍ يخاف أن يكتوي بشمس ليلٍ خلقها خوفه.
ارتمى في أصقاع الأرض وتدثّر بالفزع. توسّد الموت وكأنّه راهبٌ وكأنّ الحياة امرأة. حدّق في فضاء المكان الضيّق وصرخ...
«إن كان لا بدّ أن نخاف فلنفعل ونحن أقوياء».
استمهله أحد أعضاء الوفد أن يتريّث للحديث إليه لكنّه لم يلتفت. انتحى عنّا وتكوّر في اللّامكان.
في عُرف الحياة لم يكن ضريرًا. ورغم اصطدامه بكلِّ شيءٍ يعترض طريقه... الأشجار، أعمدة الشمس، الأطفال، أحلامه المعطوبة، قِدر امرأة صَبُور تطبخ فيها وتنتصف بين فخذيها لتغسل أكفان زوجها وأولادها، لم يصطدم بنا لئلّا نأخذه رهينة حربٍ لن تُسدّد فواتيرها المُشمّعة بدَينٍ

آبديّ. لن يفاديه آحدٌ بعد آن سُكّ عملةً لا تُصرف. يخاف قَدَرًا يلعب بمصائر البشر كنردٍ على طاولةِ قِمارٍ لا تُغلق، أو كدُميةِ ماريونيت تُضحِك الجميع وهي عائمة في بحرٍ من أنّاتٍ لا تغرق.

لا يريد المطالبة بتعويضاتٍ عن فقدانٍ حلّل أنينه وألهب كينونته المستعرة. فعلها يومًا وندم، دفع ضريبةً قاسية ما انفكّت تتعاظم.

طلب شوارعَ لا تفترشها الألغام النتنة بدلًا من تلك التي اقتلعتها البراميل المتفجّرة من جذور جذورها، لكنّ الزمن استطال عليه فظفر بأرصفةٍ مؤثَّمة ومكلّلة بالانتحاب. طالته مقابرُ مُسِنّة لا تتحرّك من ثقلِ جثثها.

استعطى السماء دفقةَ أملٍ فأوغرته بالخذلان حتى باغضها وأحجم عن الإخلاد إليها. ركل السماء ووطّد عَلاقته بالأرض. احتفظَ بها، لن يمرّرها لأحد.

أدرك أنّ هالة الحياة بِدعة صنعها الموت ليخلق من ضعفه هيبةً.

لم يعبأ بالنصر، قايض السعادة بالأتراح، تعرّى بالفقدان ووطِئ العيشَ بالخوف.

4

أطفالنا لا يدركون حجم الكارِثة التي تربّوا فوق كتفيها كقططٍ رضيعة، احتَضَنَتهم أمًّا وابتلعتهم مجرمةً. ارتدّوا عن مشارف الموت فأقامت الحرب الحدّ عليهم، إذ باتوا في نظرها حنفاءَ في المروقِ.

أُزهِقَت طفولتهم على أسفلتِ هلاكٍ شذّهم عن أحلام مقاعد الدراسة، أخفاهم في أصوات ويلاته المتهادية فوق رؤوسهم، وغسل صباحاتهم بدماءِ من يقرّر سفير العالم الآخر احتضانه. يُقتلون في أرضهم وبين أحضان أمّهاتهم، يستنجون باللجوء إلى دولةٍ أخرى، أيّ دولة قيل لأهاليهم إنّ العصافير لا تزال تزقزق في

سمائها.
حفنة من الأسلحة العاتية سُلَّت لكنّها لم تحجب الأمل عنهم. يبتسمون لقدرهم الموجع، ينسون أو يتناسون، لا دلائل تدحض نشيجهم أو توثّقه.
بُثَّت سنواتهم المجرّدة من الطفولة أمام المجازر، وزحفوا خطواتهم الأولى خلف الأسلاك الشائكة، أُصدِرَت شهادات ميلادهم تحت جنازير الدبّابات وأمضوا الأعياد فوق صهوات الصواريخ. نفخوا شموع أعياد ميلادهم فانطفأ الضوء، وانطفأ كلّ شيء. أحاطهم الذعر من كلّ جانب ومارس معهم ضروبًا من الجنون. أجبرهم على نسيان عالم ديزني واستبدال سلسلة مغامرات كلينتون وبوش الأكثر تشويقًا به. الزوج فالزوجة، الأب والابن، ينقصهم الروح القدس ليكتمل ثالوث الرعب.
أسطولٌ من الساسة تناوب على حمل أطفالنا وتفرّد بإرضاعهم بطرقٍ عبقريّة لم تكن يومًا تقليديّة حتّى أفسدوا أجوافهم. قمّطوهم بالبزز وطبطبوا على مؤخّراتهم وبذلوهم في كتائفِ معاركَ عصيفة. تفنّنوا في نهب طفولتهم وغرز الرزايا في أجسادهم، هذا لأنّ الألم الرتيب لا

تذكره مخطوطات التاريخ ولا تزفّه القنوات عريسًا بثوبِ خبرٍ عاجل يهرب من نشراتهم القاسية وتهليلها وتطبيلها وتزميرها ليحتمي بزوايا شاشةٍ تعرّيه وتفضح سرّ عجزه للعلن وتُشهّر به.
نَجَوا من غزوات الهلع وخلعوا نياشين البطولة المعلّقة على أكتاف الجبناء الخاضعين ووضعوها فوق كُرات طفولتهم الممزّقة وركلوها بعيدًا... إلى آخر حدود الأرض، حيث السياط تجلدُ طفلًا لا يموت ولا يعلم كيف يعيش. يجبره ضواري الوطن وحاشياتهم على إراقة بقايا ظلّ رحلته الضائعة في مسلكٍ مُلغّز بلا مفاتيح، لكنّه ينتفض.
إيّاك والمساس بكرامةِ طفلٍ جذروا أسنانه قبل أن تبزغ، لكنّه لا يقلّ إباءً عن تفّاحة قزمة مَضَغَت أحدهم عندما حاول نهش جسدها، موضع كرامتها.
بعدما صادَرَت ساحات الوغى ألعابهم وشدّتهم من شعرهم متوعّدةً إيّاهم بالعقاب على الزلّات الخالدة لأصحاب قصورٍ لا تلمح الأكواخ، قرّروا سرقة الطفولة من فوق ضمائرَ غَدَت تهجر أعشاش أصحابها، تمامًا كما يغادر الرصاص أفواه البندقيّات بلا عودة وبلا وجهة محدّدة أو كفتاةِ ليلٍ تبعثر فرجها هنا وهناك وتغوي أنياب الرجال

السفلى النابحة لكلّ ثقبٍ، وإن غاب... احتفروه!
نساء الليل يعتلين من يلتقطهنّ أوّلًا ليَعمنَ ببياضِ نشوتهِ ويمضين. العاهرات يغتسلن بالأبيض ورجال السياسة يُؤثِرون الأحمر عليه. ثمّة من يقذف حُمم الأبيض على السرير وثمّة من يسفك الأحمر ويبخّه تحت إيقاع القصف المتواتر. بصاقٌ أبيض قد يتحوّل إلى إنسانٍ إن وُظِّف في المهوى الملائم، أمّا الأحمر فلا يهبُ شيئًا لأحد.
سألني طفلٌ بخشية عن سبب تحدّث الوفد بلغةٍ لا يفهمها. قلتُ له إنّها لغة أجنبيّة ولسان نطقنا، كما لسان حالنا، يختلف عنها. اتّهمني بالخيانة لعروبتي وبالعَمالة لأنّني أنهق بلغةِ من دمّر بلده وقتل أباه وخطف أخاه وشرّده وأمّه.
– إنّهم ليسوا أعداءكم، بل أتوا لمساعدتكم وعوائلكم.
علّلتُ ولم يقتنع. ولا أنا فعلت.
وكأنّني أرثوذكسيٌّ يقنعُ كاثوليكيًّا بإنجيل برنابا!
فرك عينيه بيديه المتّسختين وأطال النظر إلى أسفل جسدي ثمّ رفع رأسه وحلّق بباصرتين أغلقتهما أطناب الشمس وطالبني بالنزول من

غيمتي.
جثوتُ على رُكبتي اليمنى فاستغلّ قربي منه وبصق في وجهي وأماط عنّي مذعورًا إلى رهطٍ من الأتراب مِمّن يدانونه النوائب ويتواثبون فوقها. بدأوا بالضحك على وجه الخائن الغارق ببصاقِ رفيقهم المناضل المدافع عن حقوقهم المسفوكة بمباركةٍ إنجلو-أمري-عربيّة.
حتّى اليوم، لم يجفّ لعابه عن وجهي، أغرقُ به وأختنق... ولا أموت. لا أملك شجاعة هذا الاستحقاق. وحدهم البواسل يجاهرون شعوذة الموت بابتسامةٍ لا وزن لها، تاركين لنا فسحة التقمّط بالأسود والنحيب على من اختَلَت الديدان بهوامش أجسادهم.
يسأل الوفد ونترجم، يجيب المساكين عن أسئلتهم ونترجم، يعاودون السؤال، ويعاودون الإجابة، ونعاود الترجمة... يتعاطفون معهم ونترجم، يستنجدون بهم كالقابض على الماء ونترجم، يكذبون عليهم بالوعود فيتسلّم عُرقُوب ومُسيلمة زمام الترجمة.

5

عدتُ ومارك، زميلي في العمل، إلى سيّارتهِ بعدما حثّ الليل خطاه ولفّتنا الرطوبة من كلّ جانب، فوجدتني أسأله وأنا أترنّح من انتصاف الهزال في جسدي...

– هل ثمّة جاذبيّة عجيبة في الأرض العربيّة تسحب الأرواح بلا هوادة؟ من يعيش في سوريّة والعراق الآن؟ الشعوب برمّتها هنا، في هذا المخيّم المذلّ المسكون بأرواح المنازل الحقيرة.

– هذا ليس إلّا غيضًا من فيض الشعب السوريّ الموجود في لبنان. العديد منهم لم يغادر سوريّة. يصارعون الجحيم هناك لكسبِ دقيقةٍ أخرى في وقتٍ ضائع للعبةٍ لم تنقلها وسائل الإعلام بثًّا

مباشرًا لأنّها لا تستقطب المعلنين. وما بين من فرّ فزعًا من ربوع الملاحم بعد أن تقهقهر أمام جبروتها، ومن صمد في وجه صراخها، ثمّة من تنازل عن الحياة بمعيّة موتٍ اخترق روحه. استسلم وغادر البلدين، غادر إلى السماء. الجاذبيّة هناك، مع الرفيق الأعلى وليست في الأرض. تباروا في الوصول إلى خطّ نهايتها، الملعب الواسع لا يستوعبهم وهم فشلوا في استيعاب أدران حكّامه، فحُذِفَت أرواحهم من أوراق الحياة وأُلحِقوا ببارئهم. لا تستهويهم طرق الرحيل التقليديّة التي لا تتلاقى وتطلّعاتِ جبابرة الطغيان.

غاص قليلًا واستطرد...

– ماذا يعني أن تُدفن وجسدك لم يُهشّم وهُويّتك لم تُفقد في كومةِ لحمٍ مُحترِق بالقربِ من بنايةٍ سكنيّة كَتَبَت البراميل المتفجّرة والقذائف خاتمة جدرانها؟ هكذا يوفّر الموت على العوائل عناء الاهتمام بعضهم ببعض والبحث عن قبورٍ بعد هبوب الفاجعة. اختصر لهم الطريق وشَحَنَهُم دفعةً واحدة إلى العالم الآخر. أو ربّما استعجل رحيلهم من العالم الآخر الذي عاشوه هنا مُكرهين إلى عالمٍ حقيقيّ لم يخبروه من

قبل. بحثَ في أكياس القمامة عن كسرةِ خبزٍ لكنّه ظفرَ ببقايا جثّة ألقتها عصابة مؤمنة بعدما نالت الفدية من عائلة الضحيّة. مشهدٌ مشوّق يلطّف رتابة فصول مسرحيّة الرَعاع هذه. دقّ أبواب الموت في الليل أشدّ مضضًا وإثارة من قرعِ طبول الحياة في النهار.

حاولتُ في أثناء كلامه غير المفهوم وغير المترابط جدولة بعض العمليّات الحسابيّة السريعة وغير الدقيقة عن بيوتٍ أُغلِقَت وأرواحٍ خُطِفَت ومساجدَ يتيمة وقبابٍ حزينة وكنائسٍ قُتلت أجراسها وأضحت أرامل. من كان أكثر حظًّا؟ الضحايا أم الناجون؟

سألته:

– تُرى لو استُبدِلَت بأسمائهم الفعليّة أرقام أعداد القتلى في سوريّة والعراق ولبنان وفلسطين واليمن عند تلاوتها في الأوركسترا الوطنيّة للأخبار، فكم من الوقت ستحتاج النشرة لضخّ القوائم على مسامعنا؟

– حسابات الوقت ليست ذاتها هناك. أما روّاد الأوركسترا فهم خُرس وطُرش وبلا بصيرة. تندمج أحاسيسهم المرهفة مع اللحن بدندنةٍ بلا صوت. نحن لن نكتفي بأسماء القتلى. نريد أسماء من

أنجبهم ومن أنجبوا، وأسماء من يحبّهم. ما هي أمانيّهم؟ ربّما حقّقناها لهم في عالمٍ آخر. دماء اليوم هي وثائق الغد.

أردتُ أن أقول له إنّ الوثائق التي يتحدّث بها ستتحوّل إلى ألواحٍ سابحة في صناديقَ سود ليحلّلها علماء الآثار بعد سقوط الطائرة، وحتمًا سيعرفون القاتل ولن يقاصصوه ولن يثير تورّطهم في سفك الأرواح على رؤوس الأشهاد استهجان الرأي العام، ولن تُبنى لهم النُصُب التذكاريّة في وسط المدينة وأطرافها.

لن يثأر أحدٌ لأجسادهم التي لم تُطيَّب بالحَنوط، فهذا عالمٌ باطل لا يرمي الحقّ لأنّ أصحاب الكروش ينامون عليه فيضيع سبيل النصفة فوق صَنجة اللّاعدالة.

عالمٌ من دواخنَ ملوّثة، تخدعك فتظنّها تَبَخَّرَت، لكنّها حتمًا ستبتليك بأوبئةٍ بلا أمصال...

اكتفيتُ بالصمت وعلى لساني وفي جوفي ألف سؤال يناطح عينَيْ مارك... وألف لا جوابهما.

مِطرقة القاضي

(عندما تغنّي الدموع، ترقص الغربان)

الماضي...
ورقةٌ سَقَطَت عن خريف شجرةٍ ذاوية،
اصفرّت عناقيد بَهرَجها الأخضر.
داعَبَتها نسمة صيف أيقَظَت سباتها،
فرَقَصَت لربيعٍ أعمى،
لن يأتي...

1

«كنت أشعر أنّه يحمل وطناً حيًّا بين جنبيه أكاد أسمعه.»
محمد قراطاس (الأعتاب)

تبدأ المِحن عندما تعتقد أنّها انتهت. تتورّط فيها وتغوص في كثبانها عندما يُخيَّل إليك أنّ الشمس ستبزغ والصفحة ستُطوى.

الرصاصة الأولى هي الأصعب. ستألفها بعد سماعك أزيز الثانية ونقيق الثالثة. وبالعودة إلى الوراء، لن ترتعد من سماع دويّ انفجارٍ في أذُنيك الممزّقتين والمخضّبتين بحربٍ خضّبها نبض الحقد.

القطرة الأولى هي الأعنف. تلتصق بثيابك وجسدك لتفتك بحاضرك ومستقبلك بمِحجن

الماضي. قطرةٌ واحدة كافية لجعل سريان الأخريات في حُفر حياتك مألوفًا.
ذات مرض، نالت الحرب من رئة ناديا. عمّ غيابها وتَوَقَّفَت عقارب ساعتها الرمليّة الوعِثة عن الدوران.
لم يمت خال والدتي متأثّرًا بجراح رحيلها. نثر عليها التراب بعينين قاحلتين أتلفهما غبار الحنين مُكتفيًا بالأسف على فَقدِها بعد أن استفتى عقل المحارب المُنخرط في الأحزاب والتكتّلات السياسيّة تفضيلًا على قلب الزوج، المحارب أيضًا، ولكن في معاركَ أخرى.
استأصلها من قاعِهِ وأخرج شظيّة موتها المشتعلة التي انتَهَكَت حُرمة جسده. أكمل الرِحلة بمنطقِ رجلٍ عسكريّ عاش طريد لعبة الحياة بعد أن جال في حروب الشوارع ومارس الجنس مع الهراوات أكثر من معاشرته لزوجةٍ مصابة بالسرطان. أنفق حياته في الحرب الأهليّة فأفلس شبابه. اقترض عمرًا بلا رصيد طيّحه في تصفّح الجرائد الفارغة وحلِّ الكلمات المتقاطعة بضجيجه.
لا أحبّ جلساته التي تفوق مواضيع خالتي ميراي مللًا. لم أكن توّاقًا إلى الخوضِ في الأواصر

الأسريّة مع عائلة والدتي وأنسبائها. لطالما دخلتُ فِي مساجلاتٍ عاصفة ومطوّلة مع خالتي كلّما طَلَبَت منّي مرافقتها إلى منزلهِ في الأشرفيّة. أعلم مشاقّ زياراتها لأفرادِ عائلةٍ غريبة قاتلتُ للابتعاد عنها.

كان يسكن حيّ السيوفي – التابع لمِنطقة الأشرفيّة – الذي يفصله عن حيّ مار نقولا حيث أسكن، في نفس المِنطقة، بعض الشوارع المشلولة والمزدحمة بروّاد مركز « ABC» التجاري.

اعتاد احتساء قهوته الصباحيّة في «ستاربكس» في ساحة ساسين القريبة من شقّته. كان يجلس وحيدًا شارد الذهن. ينظر إلى صورة بشير الجميّل المنتصبة في الساحة قبالة علم لبنان المعلّق فوق سارية طويلة وكأنّها شجرة بتولا روسيّة. يتأمّلها ويربّت ركبته المرتجفة ويبتسم هازئاً بما لا يعرف. يراقب العلم ويبتسم لبشير ويلومه على رحيله المبكّر. يحاكي الشوارع المبلّلة بمطرٍ توقّف نحيبه للتوّ بلغةٍ لا يفهمها سواه، ثمّ ينصت إلى أجوبةٍ لم ينطقها إلّا ثغره المزدحم بحكاياتٍ ممشوقة الدواهي، طوَته وأطالت عليه الغياب حتّى تخمّر

آملًا عودة شخوصها إلى المسرح. زوجته خانته مع السرطان، وابنه خانه مع الهجرة. تركاه رجلًا وحيدًا يُقلّم أظفار الندم على عُمرٍ سُرق منه دونما شعور.

هو نارٌ على علم في الأشرفيّة. يبتسم للمارّة الذين أشاعوا عنه قِصصًا مفادها أنّ الوحدة مسّته بخبل. النسوة يحذّرن أطفالهنّ الحديث إليه أو التقرّب منه، ويعتقد أصحاب المحالّ التجاريّة عندما يلمح أحدهم ظلّه عند عتباتهم أنّه يستجدي الطعام كدجاجة تطلب اللقط من التراب. لا يعلمون أنّه يملك أموالًا كافية لشراء الأشرفيّة بذكرياتها وأعلامها وحُفَر رصاص الحرب الأهليّة المُتعاقدة مع أضرحة البنايات.

كنتُ أصادفه بين أوانٍ وآخر في ساحة ساسين وأنا في طريقي إلى عملي. لا أذكر أنّني توقّفتُ يومًا للحديث إليه. اكتفيتُ بمراقبةِ طقسه الصباحيّ الرتيب من سيّارتي عند إشارة المرور.

كنتُ أتفاعل أحيانًا مع حماسته. أهبُّ مع هبوبه وأكنُّ مع ركوده وأحلّقُ مع خرافاته الوطنيّة فوق نضال عُرابي وكفاح الخطّابي وثوريّة المختار لأكتشف أنّنا نعيش في زمن انتفاضاتٍ بلا دروع، تبدأ وتأفل فوق أرصفة الإنترنت وبين طلبة

المدارس والجامعات وفي ذرى آناسٍ يلخّصون الوطن بقِطعةِ قماشٍ تنتحل شخصيّة عَلَمٍ يعصبون به ما بقي من رؤوسهم وعقولهم، أو ربّما عمائرهم. يرفّون جماجمهم على دقّة الاحتياط ويسلبون الحكم صافرته وراياته لتبدأ اللعبة الحقيقيّة بأشواطٍ إضافيّة لا تنتهي.

وكي لا يتّهمني بالجُبن واللامبالاة، سرتُ معه ذات مرّة، والعُكّاز ثالثنا، إلى وسط بيروت، في تظاهرةٍ فينيقيّة – عُرِّفَت بالسلميّة – كنّا قد توسّمنا فيها بصيص نور. وفي أثناء التدافع السلميّ مع الكائنات السلميّة في تلك التظاهرة السلميّة في بلدٍ شابّ وعاصمةٍ بظفائر يعمّها السلام ولا تعرف شيئًا عن النُعرات الطائفيّة والنزاعات الأهليّة والطبقيّة، ولا التمييز بين لبنانيٍّ وسوريٍّ وعراقيٍّ ومصريٍّ، تناهت إلى مسمعي كلمات أحدهم بين الحشود يتحدّث في قضيّة حلّ أزمة النفايات و يطالب أصحاب السموّ اللبنانيّ بالتحرّك السريع لإنقاذِ بيروت من الغرق بخيبةٍ جديدة على شكلِ حاويةٍ خضراء أو منطادِ قمامةٍ عملاق يسبح عاليًا ويقضي حاجته على رؤوس الواقفين في طوابير الأمن العام ومنظّمات الأمم المتّحدة.

بيد أنّ أحدهم رفع قضيّة الفساد الإداريّ عاليًا، معلنًا أهمّيّة تلك المعضلة المخضرمة التي فاقت خطورتها خطورة النفايات وأزماتنا الأخرى من الكهرباء والماء الملوّث والأطعمة الفاسدة، لكنّني في كلّ ذلك الجَلَب الوطنيّ كنتُ أسمع جعجعةً ولا أرى طحنًا.

فَضَّلَت الكثرة الكاثرة الهتاف مع القافلة في أثناء انشغالها بالتقاط صور السيلفي ونشرها على الإنستغرام مع عبارة «#كلّنا_للوطن».

لا أعلم عن أيّ وطنٍ كانوا يتحدّثون بالضبط.

تظاهرتُ معه رغم اقتناعي أنّ الاحتجاجات العربيّة ما هي إلّا بعض السجالات التي لن تنطلي إلّا على أقفاصٍ كبيرة متحكّمة في مصير عصافيرَ صغيرة وضعيفة تحاول كسر حبسها والخروج إلى الحرّيّة. تنجحُ في الفرار لتعاود طلب اللجوء مجدّدًا إلى الأقفاص الخيزُرانيّة متحجّجةً بخوفها من خطر الطيور الجارحة في الخارج.

هتفنا بحماسةٍ مُعمّقة وغضبِ ثوريٍّ فلسطينيّ يقف قبالة الكنيست الإسرائيليّ، خلا جيبه إلّا من بعض الأحجار الصغيرة العاجزة عن رشق العصفور الأعرج الجناح. كانت تظاهرة حقيقيّة، شكلًا وتفصيلًا، مليئة بالمَظاهر

والمُتظاهرين المُتظاهرين بما لا يملكون.
عدنا يومها نضرب الأسدار بثيابٍ فولاذيّة مزّقها الفشل وبلّلتها مياه خراطيم القوى الأمنيّة الساهرة على راحة غربان الرئاسة المُتقلّبة في ثياب الثراء، مُعمّرةً القصور والتماثيل بعجين أجساد المساكين. تنعق مع كلّ خطاب وكلّ اقتراع وكلّ خصر.
لم تغلق الدولة الماء عن تلك الخراطيم كما تغلقه عن حنفيّات بيوتنا.
في المساء حملنا نعش لبنان للمرّةِ الألف، في تأبينٍ حوّلناه إلى تقريظٍ حُكي به من شرق الداون تاون إلى غربها. نتيجةٌ متوقّعة، هذا لأنّنا منذ زمن استسلمنا بخنوعٍ للعبوديّة.
بعد التظاهرة والجنازة، عادوا إلى شارع الحمراء بقلوبٍ مُنكّسة خالية الوفاض. شربوا نخب هزيمتهم ورقصوا على أنغام بيروت. هكذا اعتادوا مكافأة إخفاقاتهم.
– بيروت... بيروت! لك بيروت حزينة يا خيّي... بيروت عم تموت، ونحنا عم نسكر، عن جدّ نحنا بلا ناموس.
– خيّي... بيروت درويشة ما بتزعل من حدا. زعّلها اليوم وراضيها بكرا. شلّك شي كيس زبالة

من فوقها وهيّ بترضى.

لا أعرفهما ومساجلتهما النبيلة التي تقشعرّ لها الأبدان. لَمَحتُهُما في البار يتراشقان بيروت. يحاولان إرضاء الوطن بالتجالد على بقاياه.

اختصما في الوطنيّة، واحدهما يقاول الآخر في البيعة. يتجاريان في رفع كيسِ قمامةٍ من فوق شيخوخة بيروت وأكتافها المتعبة والثمِلة بتجاعيد الحرب المضنية التي لا تمنحك فرص الدفاع، تسكب عليك دلاء الصبر بانتظار هزيمتك، وعليك الرضوخ أو الرضوخ.

لم أعلم كم ستسعد بيروت بهذا الحوار، فهي لم تكن معنا. كانت تدخّن في الرواق وتبكي. رأيتُ دموعها تنسابُ بحرقةٍ على نوافذ البار. دموعها تنادينا وتغمغم طالبةً منّا أن ننصرف عن رجمها فهي ليست زانية.

أطفأت بيروت المُنهكة جوعًا للسلام سيجارتها العليلة في جيبها الغثّ ورَحَلَت بهدوء. رَحَلَت قبل أن يدرك السُكارى الصباح. ورحلتُ أنا أيضًا واضطجعتُ فوق سريري وحلمتُ أنّني أركض ومن حولي يقف الجميع وهم يشجّعونني على الاستسلام لأفوز ببيروت.

2

خالتي البريطانيّة تعدّ خالها الفرع الأخير الصامد في بيروت من شجرة عائلة والدتها اللبنانيّة. فبعد وفاة والدتها – جدّتي – في لندن وانتحار خالتها – أخت جدّتي – بالحبوب المهدّئة لأسبابٍ مجهولة، أو لأسبابٍ أرادوا حجبها، وهجرة شقيقتها الكبرى – خالتي الثانية – إلى سويسرا، ونزوح الصغرى – والدتي – إلى لندن وهروب ابن خالها الوحيد إلى ألبيرتا الكنديّة في بقعةٍ يسكنها البشر والدببة القطبيّة مُناصفةً، شَعَرَت أنّ كومة العظام المُرقّقة هذه باتت مسؤوليّتها الشخصيّة.

ألقت الشفقة والالتزامات الاجتماعيّة والواجبات

العائليّة أو ربّما حبّها لهذا الرجل المُحبط على عاتقها صناديد الاهتمام به والتشذيب عنه وكأنّها باحثة بيئيّة تذود عن الباندا الأخير على كوكب الأرض لحمايته من الانقراض.

ذهبتُ معها للاطمئنانِ عليه فور عودته من باريس بعد أن أجرى عمليّةً جراحيّة مُعقّدة في نخاعهِ الشوكيّ كادت تصيبه بالشلل، لكنّه تماثل.

شعرتُ كأنّني مَقودٌ إلى متحف سرسق في زيارةٍ لمَعلَمٍ نادر من معالم عائلة جدّتي اللبنانيّة التي تزوَّجَت ببريطانيّ طمعًا بأمواله. أحبّها لدرجة الجنون فأقنعها بأنّ له ثروة لا يُعرف منبت جذروها وهو في الواقع كان يعملُ بائعًا للنبيذ المعتّق في باريس.

وقع في حبّ جدّتي عندما زار لبنان مع صاحب معمل النبيذ الذي يعمل فيه لإجراء صفقة مع أحد تجّار سوق الطويلة في بيروت. كان جدّي حَسَنَ الهندام فلم تستغرق حبكته على جدّتي الكثير من الوقت. أقنعها لاحقًا بأنّه خسر أمواله في المضاربات العقاريّة.

لَطَمَت جدّتي على وجهها في اليوم السابع لزواجها ولطمتُ أنا بعد ستّين سنة على

زواجهما عندما أجبرتني خالتي على زيارة خالها بعد انتهاء رحلة علاجه الباريسيّة.

وجودي في منزل هذا الخال يكربني ويجلب البؤس.

فُتِحَ باب الشقّة وأطلَّ وجهٌ آسيويّ بشوش – مع الإرهاق البائن عليه – بملابس المُستخدمات المتعارف عليها في لبنان.

لم تعرفنا. ربّما كانت جديدة في المكان. المُستخدمات لا يحتملن البقاء معه لفترةٍ طويلة لأنّهنّ غير مستعدّات للاستماعِ إلى تفاصيل الأسلحة المُستعملة في الحرب العالميّة الثانية ودَور الحرب الباردة فيها، ولا قِصص العدوان الثلاثيّ على مصر وروايات الحرب الأهليّة اللبنانيّة والقادسيّة العراقيّة مع إيران. مُستخدمة آسيويّة لن تسرف الاهتمام بالجوانب الإيجابيّة والسلبيّة لتأميم قناة السويس والخصخصة الاقتصاديّة في الدول الرأسماليّة وعلاقة ستالين بلينين وكيف قُتل أبراهام لينكون في مسرح فورد في واشنطن.

تَوَجَّهَت خالتي فورًا إلى غرفتهِ البعيدة عن باقي أجزاء الشقّة وبَقيتُ أنا في غرفة المعيشة أنتظرهما.

نظرتُ من النافذة فوجدتُ شجرةً تترنّح يمينًا وشمالًا ببلادة سكّير مخضرم. كانت ترقص على أنغام نسيمٍ وانٍ وكسول داعب وجنات الحديقة الأماميّة للبناية. راقبتُ المنظر من الداخل آملًا خروج خالتي بسرعة لأغادر هذا المكان الذي بات يخنقني وكأنّني داخل قارورة.

صُرّ باب غرفته، وبعد ثوانٍ قِلال رأيته يزحف خُلسةً بوجههِ الكالح بمرضٍ غَسَله بمعموديّة الوهن. وصل إلى قارعة غرفة المعيشة بعد أن اكتَهَلَت قواه الخائرة. كنتُ أراقب أنفاسه المُجهَدة والمُثقلة بسطوة المرض لكنّه كان يخطو بمهابةٍ لم أشاهده يرتديها من قبل، وكأنّه يحاول أن يزيح شكوكنا بتسرّب عافيته وانحلال جسده.

غَلُظَت عظامه وتكوّرٍ جلد وجهه ويديه فوق أماكنَ قليلة منها تاركًا الباقي بلا سند. أنعم النظر إليّ ثمّ ألقى التحيّة وفرد ابتسامةً بلهاء قبل أن يستوي في أريكةٍ تُزاحم باب الغرفة المشقّق.

كان يرتدي ثيابًا سميكة بُنّيّة اللون وجوربًا أسود وقلنسوة رماديّة مَحوكة يدويًّا بدت لي كأنّها عتيقة وترمز لشيءٍ ما في ترسانة نفسه.

الغليون في يمينه ونظّارة آثريّة استوت فوق سقف رأسٍ أنفه الطويل المُدبّب النهاية والمُحبّب الأطراف كمن كان يقرأ رواية تعيسة وتوقّف للتوّ. لحيته تحاول الانتصاب ومغادرة خدّيه وذقنه وأعلى عنقه لكنّها بقيت عالقة في بقعٍ مظلمة بين حافات مسامّه وأسفل جلده.

لم يَبشش بي ولم أبادر إلى مصافحته. اكتفيتُ بابتسامةٍ صفراء وتراءى لي أنّه رحّب بالفكرة. وما هي إلّا ثوانٍ حتّى دَخَلَت خالتي برفقة الفتاة والشاي.

غرس سبّابته في صورةٍ موضوعة فوق طاولةٍ خشبيّة ممدّدة إلى جانبه كدّتها الكتب والصور التي لم يُستفضل منها سواه. هو يسهب في الكلام وأنا أنخرط في ماضيه حاملًا معه المِنجل وغارقًا بأتربةِ أيّامه الناكرة لأرضه، وخالتي تشرب الشاي وتتصفّح هاتفها الغبيّ كي لا تُجهد نفسها بثقلِ قِصصه وقرقراتها المبحوحة.

– هؤلاء ميامن الحرب الذين استماتوا هباءً في المحافظة على شموخ أرز لبنان. هذا جورج. قضى نحبه برصاصةٍ طائشة في واحدةٍ من حروب الشوارع اللعينة. لم يكن الانسحاب من الحياة ضمن لائحة مشاريعه المستقبليّة،

فزوجته كانت حبلى. مارس معها الجنس قبل أن يُقتل. أنجَبَت منه بعد تسعة أشهر من هطل دمه على الأرض. لِمَ نزف بتلك الغزارة؟ السماء كانت صافية يومها. لم ألمح سُحُبًا حمراء فوق بيروت تنذر بموسم الحرب وحصاد البشر، لكنّني أدركتُ لاحقًا أنّ الموت قد تمرّد على السُحُب. لم يعد بحاجةٍ إلى الشتاء ليهطل. أعلن انشقاقه عنه منذ زمن. لا يتقيّد بالفصول ولا تحكمه زخّة عابرة ذرّتها السماء في غيمة.

قاطَعتْه خالتي طالبةً منه احتساء الشاي قبل أن يبرد، فاستجاب لها وسرق رشفةً ثمّ أعاد الفنجان إلى مكانهِ بعد أن نزف بعضًا من محتواه على يده والصحن.

«اللعنة على جسده الذي لا يسكن»، اعترضتُ في نفسي.

كبا على الكرسي وما إن مضت دقائق قليلة حتّى أفاق مذعورًا وتابع حديثه...

– بعد سنواتٍ على رحيل جورج، رأيتُ زوجته حبلى مرّةً أخرى. مارس معها الجنس بجسدِ رجلٍ آخر لم تقتله أكذوبة الحرب. الشرموطة تجوّزت غيره.

غام وجهه في الذكرى الموحشة. توقّفَ عن

الكلام، طأطأ رأسه وخلع عينيه الثقيلتين وعاود الإمعان في غيمةٍ غطّت سقف فصول حياته...

– وهذا فراس، كان زميلي في المدرسة، شاطرني يوميّاتي في أتون الحرب الأهليّة. كنّا نسكن البناية نفسها في عين الرمّانة. ذات يوم اشتدّ عناء القصف. لذنا بالملجأ التابع للبناية لنختبئ من نزق الرصاص وهوسه بأرواحنا. تأكّدنا من سلامة الوضع وتلفّحتُ أنا بسترةٍ ضيّقة مكتظّة بثقوب الحرب. تفقّدتُ ابني الممدّد فوق وسادةٍ كانت بيضاء، وبَدَأت ناديا تتصفّح المحطّات الإذاعيَّة بحثًا عن ذبذبات مونت كارلو الدوليّة لمعرفة التطوّرات في الخارج. أمال فراس رأسه إلى الحائط ودخل في سباتٍ من بكاء. كانت زوجته وابنته في منزل أحد الأصدقاء. لم ينتظر حتّى يهدأ القصف. ترجّيته ألّا يخرج ثمّ صحتُ به بصمتٍ أخافني وزاده إصرارًا على الخروج. عناده وخوفه على عائلتهِ كانا أقوى منّي. أزمع الخروج، قلت له: يا فراس إذا فلّيت من الملجأ تحت هالقصف ما حَترجع. مرتك وبنتك يمكن يخسروك كلّ العمر، سماع منّي وخليك هون، لأن غير القصف في صوت قواص برّة. لكنّه لم يصغِ إلى كلامي. رجلٌ غير عابئ بشيء. كان قاصدًاَ إلى

عائلتهِ قبل أن يمضي بدرب الهلاك ليستأثر الرصاص بترائبهِ. اهتدى إبليس إليه من بين كومة الأرواح المعلّقة في الخارج على مشنقة الطائفيّة. رصاصة واحدة هي الطريق الأيسر الذي يربط بين روحين، تمامًا كما يربط خطٌّ مستقيم بين نقطتين. كان نقطة وكان الدم قرينه. لم تفسح له الرصاصة المجال للقاء زوجته وابنته، بل أهدت لهما مساءً خبر مقتله لتنتكب العائلة بعدها لسنوات. لم نتمكّن من حضور دفنه وجنازته في اليوم التالي لشدّة القصف. لم نؤازر عائلته بعد أن دارت عليها الدوائر. لقد كنّا في إمرةِ مدافعَ تمادت نِقمات إقامتها الجبريّة فوق رؤوسنا.

حشرج صوته وتاهت بصيرته في تلك الصورة وراح يلتقط الذكريات من هنا وهناك. لم تغب الابتسامة عن وجههِ الأجرد الملامح وهو يتلو علينا شعائر الوصب. ظلّ يحصي ما يملك وما فقد حتّى استيقن كلّ خساراته. غَفَت أهازيج فرح النسوة في ليلة زِفافه وأُتلف صداها، لكنّ رائحة الحرب الأهليّة لن تنجلي، ستبقى طازجة ولن تتخثّر في أوردةِ حاضره.

– كان وسام أصغرنا سنًّا وأطولنا قامةً وأكثرنا

صخبًا وتعلّقًا بزرائب الحياة. كان عزبًا. أحبَّ مارتينا الكاثوليكيّة. رفضه والدها لأنّه من الدروز. لم ينشغل عن حبّها يومًا ولا عن الحرب. كان يقفز من فوق الأسلاك الشائكة إلى شقّتها في الطابق الثالث، يسرق قُبلةً ويعود إلى المعارك، يبلّط جسدًا ما بالموت ويختفي، يطلق رصاصةً تلدُ نعشًا. يسرع ليتفقّد مارتينا خوفًا عليها. تسلَّق في ذلك اليوم بنايتها وكأنّه شجرة لبلاب تبحث عن شمسها، لكنّه لم يغنم بشرفتها. واصل التسلّق حتّى دنا من السماء. حبس أنفاسه في الأرض ولم يطلقها إلّا هناك، معهم... مع جورج وفراس. وحدها الحرب قادرة على التحكّم في أنفاسها وأنفاسنا بسلطةٍ لا يُبطل مفعولها.

لاذ بالصمت مجدّدًا. همّ بالنهوض جانِحًا على يديه العاطلتين وقد ثَقُلَ بدنه. غصّ المكان بوقعِ هسيس خطواتٍ ثقيلة قادته إلى غرفةٍ بلا ستائرَ تُسدل لتقيه شرّ الليل. وصل إلى باب غرفته ثمّ التفت إلينا وهمس...

«متُّ حتف أنفي ولم يقتلني الرصاص... أنا الوحيد الذي انتصر على الموت».

يبدو أنّ الحرب نالت منه بجلاء، على عكس

ظنّه. فهي تجيد التوغّل إلى معسكرات البشر بحرفيّة هجّانيّة، كالزمن البارع في نحت بثور العمر على أجسادٍ بلا رؤوس. تعرف الحرب تمامًا التوقيت المواتي لتحريك أنصارها. تبرع في طرق التنازل عنهم لتحتفظ بالورقةِ الرابحة التي تؤهّلها للضحيّة المقبلة.

في الماضي، اعتقدتُ أنّ الإنسان هو من يصنع الحرب، حتّى قابلته للمرّة الأولى فالثانية والثالثة وغيّرتُ قناعتي، فالحرب تجبل بشرًا مختلفين تمامًا عمّا كانوا.

للمرّةِ الأولى يثيرني كلامه.

تقرّبتُ من الصورة متفحّصًا. لم تكن له وزملاء الحرب كما قال. كانت صورة زِفافه، صورة مليئة بالأنقاض والحطام، تتضوّر شوقًا لمن فيها. لم تكن ملوّنة، ولا بياضًا وسوادًا. كانت خاليةً من الألوان والوجوه. لم ألمح مربّعًا خشبيًّا ظَهَرَت عليه ثُغَر الشيخوخة فحسب، بل كومةً من ذكرياتِ رجلٍ مسنّ ينبُش بمِعول الأهوال رسابة مُجلّداته باحثًا عن أرشيفٍ لبقايا أرواحٍ يعيد بها حياكة القِصّة ويصدح بها ملء كونه الضيّق.

بدأ أبطال قِصصه الخروج من زنازين الماضي. هربوا من الصور واحدًا تِلو الآخر حتّى باتت فارغة.

هنا قرّر العجوز أن يخنق نفسه بشرائط النيغاتيف ويدفن جثّته في مربّعٍ خشبيّ شرس لا ينسى ولا يُنسى.

اختفى ظلّ جورج قبل بزوغ ابنه في هذه الحياة. رجلٌ آخر استولى على هُويّته الأبويّة وسرق منه زوجته وحرمها لقب الأرملة. وفراس لم تسعفه وطنيّته بالبقاء حيًّا. عائلتك لا تردع الرصاص عن صدرك وسعيك في الوصول إلى من تحب قد يكون الحاجز المنيع الأول بينك وبينه.

يُقلّب العجوز جحورَ ماضٍ يغطس في جثثٍ أكثر من تلك الموجودة في مقبرة وادي السلام في النجف. يحاكي جورج ويقفز في الصورةِ ليَعوق طريق الرصاصات المتهامسة والمتسابقة بمكرٍ لنهشه، فلا مثوى لها إلّا صدره. يتوسّل إلى فراس ويطلب منه البقاء في الملجأ كي لا تغتصبه نيران الحقد الأهليّ في الخارج ويخرُّ صريعًا.

لا يتحدّث بهم كأمواتٍ، بل كأحياءٍ يشغفونه ويصولون ويجولون في الظلام السابح في ضياءِ صفحاتٍ لا تُخمد، هذا لأنّ الغائب يولد من جديد في قلوبنا بعد أن تلقي سحب الغياب أتربتها فوقه.

يعزفون بأوتارِ حنينِه لحنًا لأيّامٍ خَبَت يعلم تمامًا أنّها لن تعود، وإن فَعَلَت، فستكون شاحبة، فاقدة له ولهم.

قرّر خال خالتي مداهمة غِمار الحياة وحلّ لغز متاهاتها وتمشيط خباياها بفرشاة رأسٍ قاحل الشعر، لكنّه فشل وعاش حبيس صورةٍ زِفافه النائمة في حاضرٍ معوّق يهرول بكرسيٍّ متحرِّك.

غاب كثيرًا في الداخل حتّى ساورني القلق. قلتُ لخالتي ربّما لا يرغب في وجودنا أو جاده التعب فذهب ليرتاح. لم تقل شيئاً لدقيقتين ثمّ ذَهَبَت لاستفقاد أمره.

جُلتُ في منزله العتيق وسبرتُ سراديبه. تصفّحتُ الصور المعلّقة على جدرانهِ الطاعنة في الذكريات. أجلتُ النظر فيها ولم أجد واحدةً منها باسمة. كلّها كانت مهزومة.

للحظةٍ أسفتُ عليه وعلى حياتهِ. أربع أخشاب عجوز اتّخذته رهينةً لألوانها المفقودة.

مواضيعه المملّة بالنسبة إليّ تمثّل حياةً كاملة لإنسانٍ لا يملك إلّا تلك الشذرات ليستند إليها في الباقي من عمره.

كانت الأشجار تتخلّج في باحة البناية الأماميّة كما ضجري عندما خَرَجَت خالتي من غرفته

وملامح الحزن مُرتسمة على وجهها.
– مات؟
سألتها بلا تفكير وبالكثير من الخوف.
– الميّت ما بيموت.
أجابت بذروة برودها وهي تبحث عن حقيبة يدها استعدادًا للرحيل.

مِطرقة القاضي

(دردبةُ الذعر)

وكأنّ سحابة عَصَرَت ثقل أحزانها فوق رأسي...
وتركتني مبلّلًا أتبحّرُ في تعاسةٍ لا تجفّ.

1

«كما تبكي الشجرة أوراقها عند اقتلاعها من تربتها لغرسها في تربة لا جذور لها فيها ولا من يناديها باسمها، هكذا كان اقتلاعي.»

مي منسّى (تماثيل مصدّعة)

منذ أعوام كنت عليلًا، وما زلت.

تَحَيَّرَت جدّتي في مرضي. كنتُ في السادسة وكانت تلك انتكاستي الصحّيّة الأولى بين يديها. حُمَّ جسدي وضاعَت المسكينة في أمري ووعكتي. استبدّ بها زؤان الخوف، صالت وجالت في رحاب حزنٍ عكّر خطواتها. اختَلَطَت الأمور عليها وتمكّن الاضطراب من شوكتها. كنّا في الجبل والمستشفى لا يسكن الجبال الوعرة، ولم نملك سيّارة.

ساقها تفكيرها إلى الصلاة ومسح جبيني بزيتٍ مقدّسٍ جَلَبَته معها من قدّاس الأحد الماضي. وَضَعَت صورًا لمار شربل وصليبًا خشبيًّا على جسدي مع الكمادات الباردة فوق رأسي علّها تزيح مرضي. أشعَلَت البَخور وصَلَّت المِسبحة الورديّة.

«حطّيت راسي على فراشي، سبع صلبان فوق راسي، مدّ المسيح يمينه، قري الرب أناجيله...»، تَضَرَّعَت يومها مُرتّلة.

مرّ شتاء تلك الليلة بسرعةٍ خاطفة في ذهني وكأنّه صيف الأمس عندما قال لي جيوفاني، نديمي الوحيد، إنّ شقيقه يعاني سرطان المعدة، قاتِل جدّتي.

ها هو الخبيث اللعين يحاول الآن أن يلعب اللعبة ذاتها بجسدٍ آخر.

عانيتُ كثيرًا من عقدة هذا المرض. ربّما لأنّه سرق الشخص الوحيد الذي أحبّني بصدق. كلّما شعرتُ بألمٍ في جمجمتي هُرِعتُ إلى المستشفى القريب من منزلي وأجريتُ قائمة تحاليل طويلة لأعرف إن كانت رأسي خاليةً من الخلايا السرطانيّة أم سأخضع لجَلَسات العلاج الكيميائيّ الأسبوع المقبل. ترتعد فرائصي من

فكرة الألم والعجز والغثاثة.

تشتّتَ فكري بُرهةً. تَرَقرَقَت دموع جسدي واستغرقتُ في البكاء. صدقًا لم ألتقِ وشقيق جيوفاني من قبل. لم تكن دموعي قهرًا عليه، ولا تعاطفًا مع صديقي. فقط تذكّرتُ جدّتي، وتيقّظتُ أنّ أخي على قيد الحياة لكنّني لم أره منذ سنوات. أخي لا يعاني سرطان المعدة ولا يفكّر في نتائج العلاج الكيميائيّ والإشعاعات. لن يخيفه تساقط شعره ولن يقلق من هجوم المرض على جسدهِ مرّةً أخرى.

لم أسمع شيئًا عنه بعد انتقالي إلى بريطانيا في عام 1992. وقتها سجّلتني والدتي في مدرسةٍ داخليّة لأنّها كانت تقضي معظم وقتها في جامعة برمنغهام، ومرارًا كانت تسافر إلى خارج بريطانيا للحصول على مصادرَ علميّة متعلّقة بدراستها العليا أو لإجراء بعض البحوث.

خطفتني من جدّتي بسهولةٍ وتَخَلَّصَت منّي ومن كبوتي على حياتها بمنتهى السخافة.

رُحِّلتُ إليها صغيرًا. وجدتُني أتزحلقُ بميزاب الهجرة من تنّورين التي وهَبَتني مسرّات الحياة من جبالٍ باسقة وأراضٍ شرحة إلى أغوار الحزن واليُتم والوحدة لغرفةٍ باردة وقاسية وضيّقة في

بلدٍ أضيق تحت سماء بلا لون، ومطرٍ بلا رائحة، وأوجاعٍ بلا دموع، مع من لا أجيد مخاطبتهم أو البكاء معهم. رُحِّلتُ إلى هناك حيث تعلّمتُ أن أعدّ طعامي المرّ بشغف وأن ألتهمه بشراهة الجياع وأن أراقب بريدي وأنا على يقينٍ بأنّني لم أرسل عنواني إلى أحد.

كانت تلك النقلة هي المَدحَضة الأولى في حياتي والموج الذي جرفني إلى حيث لم أفهم. لَوَت الغربة عُنقي وشَلَّت جسدي في دوّامةِ ألمٍ ما رَفَعَت ظلالها عنّي.

عندما نظرتُ من نافذة غرفتي في المدرسة الداخليّة للمرّة الأولى باحثًا عن جدّتي وأخي والجبل والصخرة، لم أشاهد إلّا الشجرة التعِسة المكسوّة بزعازعَ ألَبَت إليها من كلّ زاوية بعدما تواطأ الخريف مع الشتاء على قتل أوراقها بضراوة الفصول.

يومها سَدَلتُ الستارة ولم أفتحها طيلة فصل الشتاء. أقسمتُ أنّني سأغادر المكان قريبًا، لأستفيق من حلمي بعد سنوات وقد جعّدَ وجع الهجرة حياتي. نافذةٌ واحدة حرمتني الهواء. زجاجةٌ لا تتجاوز المتر في بعديها حَجَبَت عنّي كلّ ما أحببت.

كبرتُ وأنا أعتاد عَلقم حياتي في المدرسة الداخليّة ووصاياها العشر. لا تسأل، لا تُجادل، لا تطلب المزيد، لا تضحك، لا تدمع، لا تشتَق، لا تسهر، لا تُثرثر، لا تخرج إلى الحديقة الخلفيّة بمفردك، والأهمّ من هذا وذاك، لا تسأل عن مواعيد زيارة والدتك، فنحن لا نعلم.

هكذا غزلتني الوحدة وحاكت المدرسة الداخليّة تسعَ كرات صوفٍ من حياتي. رضختُ لمصيري واتّخذتُ الصمت وجهةً لسنواتٍ مُقبلة عرفتُ أنّها ستطول.

رأيتُ والدتي تسع مرّات خلال تسع سنوات قضيتها يتيم الأمّ والأب أبحث عن أخي وجدّتي التي لم أكن أعرف أنّها ماتت بعد سنةٍ واحدة من مغادرتي تنّورين.

كلّما سألتُ والدتي عن جدّتي وأبي وأخي أجابتني بغموضٍ لم أستطع تفسيره. بعد سنوات، حاولتُ الحصول على رقم والدي في دبي لكنّها كانت تصرّ دائمًا على أنّه انقطع عنّا بمرامه. صدّقتها بعجز طفولتي وسذاجتها، وكرهتها لاحقًا بقهرِ أيّامٍ دُفِنتُ فيها هناك، فوق سريرٍ تستبيحه الجدران الملثّمة بالصور المحترقة، ويبكي.

2

عضضتُ على وجعي بنواجذ الأمس وحزكتُ جمرته براحة كفّي وتعبها وأنا أتذكّر أحلك الأيّام القاسية التي عشتها في لندن. تلبّستني الوحشة وباغتتني العديد من الجروح غير الملتئمة عن جدّتي وأخي. تَخَبَّطَت الذكريات في رأسي وساءني وضرّ نفسي ما آل إليه وضع عائلتي المُربك التي تمزّق شملها وانتثر.

شعرتُ أنّ صدري ضاق ذرعًا بالهموم.

عَلَت صيحات صخب بارات الجمّيزة ودوّى بكاء ضحكات أطفال المُخيّم الراسخة في رأسي. هاج نواح العوائل النازحة ورَفرَفَت أعلام قهرهم في أخيِلتي وشعرتُ بلمسةِ كفّ جدّتي الحانية

تمرّ على كتفي المُتعبة لتؤاسي ما يكتنفني من بؤسٍ وقهرٍ وحيرةٍ وخذلانٍ ومللٍ من كلِّ ما يحيطني. هربتُ من مكالمة جيوفاني وهربتُ هذه المرّة من بيروت، لم ألجأ إليها كعادتي. عدتُ إلى منزلي وخلدتُ إلى العزلة.

أصوات الطلبة في المدرسة المجاورة لمنزلي تغيظني. أسمعهم كلّ يوم ولا تزعجني هتافاتهم، لكنّها تؤرّقني الآن وتوتّرني.

«كلّنا للوطن...»

لا أعلم بأيّ وطنٍ يتحدّثون ولأيّ أرض ينشدون.

واحدة من هرطقاتٍ كثيرة تُلقّن للطلبة. كذب، لسنا للوطن. لماذا يحفرون رؤوسهم بإزميل تلك الشعارات غير المنطقيّة وغير الصادقة؟

نفاخر بأوطانٍ لا نملك، ونحاكي ببطولاتٍ وأمجادٍ ما عادت هنا. خَلَت بها كتب التاريخ المحرّفة ودفنتها في صفحاتٍ لم تُطبع ولن تُقرأ لأنّنا قرّرنا أن نُخلّد هزيمتنا.

من منّا للوطن؟ سيفنا والقلم؟ ألم يسمعوا عن الاختراعات الجديدة في مَيدان القتل؟ أم كانوا على دراية مسبقة أنّ داعش ستعيدنا إلى زمن السيوف؟

دار بخلدي أن أذهب إلى المدرسة لأسألهم

عن نشيدنا الوطنيّ الكاذب المُردّد في المناسبات السعيدة والتَعِسة، في مهرجانات الأدب والفن وفي سفاسف الأمور وكبائرها. لكنّني آثرتُ الاستماع إليهم وهم ينشدون تلك الكلمات ويصفّقون لعَلمنا الممتقع الألوان، الحزين الهامد فوق بناية مشلولة لا تحرّك ساكنًا لأنّها تعلم كم يكذبون. يبصقُ عليهم من ساريته العالية المكسوّة بالضباب ويلعن نشاز وطنيّتهم.

تذكّرتُ أنّ والدتي طبيبة، هي طبيبة أسنان، لكنّ خطّها رديء وتتنكّر بالأبيض عند مشاهدة أيّ مريض.

خرجتُ من غرفتي متّجهًا نحو غرفة الجلوس. اعتادت المكوث في ربوع ذلك الكرملين كلّما قَرَّرَت الاعتصام وهجر صخب حياتها، لكنّني لم أجدها. قصصتُ رائحة عطرها المتمرّد على عبير شقّتي مَقودًا إلى غرفة الطعام حيث كانت تطالع عند الطرف البعيد من الخُوان المستطيل بعض مجلّات الأزياء الإيطاليّة.

– هل سرطان المعدة قاتل؟

سألتها بلا مقدّمات.

– نعم... لِمَ تسأل؟

أجابتني دون أن تسحب عينيها من المجلّة.

– شقيق جيوفاني هو الضحيّة المقبلة أو على الأقل مشروع ضحيّة. أشعرُ بالقلق عليه من هذا المرض لأنّه هو ما نَهَكَ جدّتي.
– جدّتك لم يقتلها المرض. قَتَلَت نفسها بنفسها لأنّها كانت امرأة جاهلة لا تؤمن بالطب. عانت من السرطان لأشهر وهي تحتسي الشاي الأخضر واليانسون وأعشاب تنّورين البرّيّة للتخلّصِ من آلامها.
أجابت دون أن تحرّك وضعها السابق.
– جدّتي ليست جاهلة، ربّما كانت امرأة بسيطة لأنّها عاشت في الجبل ولم تتعلّم بسببِ وضع عائلتها الصعب والزواج والإنجاب. جدّتي لم تملك نقودًا كافية لتهرب من الحرب وتترك زوجها وأولادها وحدهم في لبنان. لم تكن أنانيّة.
– بل كانت جاهلة. عندما التَهَبَت عينك اليمنى عَصَرَت فيها ليمونة، كادت تعميك، اقتناعًا منها أنّ الليمون يقتل الجراثيم. وكادت تقتلك عندما...
– لِمَ تركتِني مع امرأة جاهلة مِن خصالها إطفاء عيون الصغار بالليمون وقتلهم بجهلها المفرط وخبرتها الضيّقة في الحياة؟ حَريّ بكِ حمايتي منها والاحتفاظ بي أو على الأقل كان من

المُستحسن تَركي بصحبةِ شخصٍ آكثر ثقافة وحُنكة في التعامل مع الأطفال.
قاطعتها باستنفار.
– عليك التوجّه بهذا السؤال لوالدك. هو الذي رفض ترك لبنان عندما كان كتلةً من الخراب. كانت وطنيّته في رُبّان عظمتها. لكنّه تنازل عن وطنهِ عندما ظفر بعملٍ في دبي. اسأله أيضًا لِمَ قرّر أَن يدمّر بيتنا وحياتنا؟ لولا خيبته لما عرفتُ أنّه على عَلاقة بتلك الروسيّة العاهرة.
تَغَيَّرَت نبرتها.
أنحت باللائمة على والدي لأنّها تعتقد أنّه السبب المباشر في تدمير عائلتنا.
– حسنًا... هذه الروسيّة هي والدة فادي، يعني أمّ أخي وقد رَحَلَت منذ دهر. لِمَ تصمّمين دومًا على ذكرها في كلِّ حديثٍ يدور بيننا؟
– هذه المرأة كانت حبلى قبل أن تتزوّج والدك. من تفتخر به كأخٍ هو ابن حرام. خيّك إبن حرام يا محترم. كلّ ما حصل لعائلتنا كان من جَنى يديْ بونيتا الروسيّة، رائدة الحانات والرجال.
– ولِمَ حرمتِني أخي وسلبتِني حقّي في القرار؟ لِمَ كنتِ تكذبين عليّ طيلة السنوات الماضية وادّعيتِ أنّ والدي هو من كفّ عن

الاتّصال بنا؟ رقدتِ على الحقيقة لسنوات وأخي الآن يظنّ أنّني تخلّيتُ عنه. أمعنتِ في حقّي بالعيش معه ومع جدّتي. لا يعلم كم حاولتُ الاتّصال به وبوالدي. وحين عثرتُ عليه كان الأوان قد فات. كيف طَوَّعَت لكِ نفسكِ القيام بكلِّ هذا؟

– ابني لا يعاشر أولاد الحرام. لولا جدّتك الغبيّة لكان هذا الجربوع فادي في مدرسةٍ داخليّة أو ميتمٍ مع اللقطاء بعد موت والدته العاهرة.

– كنتُ سأقترح على والدي بعض المدارس الداخليّة ليضع أخي في أفخمها، باعي معها طويلة.

– إن كنت تلمّح إلى حياتك في المدرسة الداخليّة، فهي من أرقى مدارس بريطانيا. لكنّك ساذج ولا تعرف قيمة الأشياء، مثل والدك. وبدلًا من الحديث معي عن أعوامٍ فاتت، اذهب وطالب بحقوقك من والدك ومن فادي الذي يستمتع بملايينك وأنت كالأبله تعيش هنا وتترجم للزعران السوريّين مقابل بقايا باوندات.

كَشَّرَت عن أنيابها واستَأسَدَت.

– زعران؟

– لا والله ولاد باشوات وأجاويد. سوري منّك ما تواخذني.

– بس بتعرفي شو. هالزعران ما بيتخلّوا عن عِيَلُن. رغمِ كل الظروف البشعة بعدن مع بعض. بيوتن خيمة، بس فيها دفا مش موجود بقلعتك يالّلي بلندن.

3

تَحَصَّلَت والدتي على فرصة لإكمال دراستها في لندن في عام 1988. بعدها لم يهدأ الصراخ بينها وبين والدي. تستنهرُ صراعاتهما، يتشاتمان ويتقارضان اللوم، يهاجمها بوحشيّة فيرطن الاثنان بلغةٍ لا أعرفها. يتمخّض احتدام الملحمة عن مغادرة أحدهما المنزل والتوعّد بالرحيل الأبديّ عن جحيمِ هذا المكان.

رفض والدي السفر إلى لندن لأنّه كان مسؤولًا عن بونيتا. كان قد تعرّف إليها في قبرص وأنجبت منه أخي فادي بلا ارتباطٍ رسمي. كانت عَلاقتها بزوجها متوتّرة لكنّه رفض الانفصال عنها بعد اكتشافه عَلاقتها بوالدي.

امتنع والدي عن ترك لبنان. تذرّع وقتها بوالدتهِ لأنّها تسكن وحيدةً في تنّورين بعد أن خُطِف جدّي في بيروت وبَقِيَت عمّتي هناك، في شقّة فرن الشباك. رفض السفر مع والدتي إلى لندن وهنا كانت بداية الويلات التي فَضَّت عقد العائلة.

أصرّت والدتي على موقفها رافضةً صدّ والدي لطموحها. ظنّت أنّه يعاني حمّى الغيرة من نجاحها وتفوّقها عليه في مجال عملهما ولهذا يرفض فكرة سفرها لإكمال الماجستير.

أجرَت اللّازم لمغادرةِ بيروت. رَحَلَت في ومضةِ عينٍ قبل أن تفكّر للحظةٍ في ابنها ومصيره.

قبلَ مغادرتها بيروت تَسَلَّمت رسالة من محامي والدي في قبرص، إذ كان والدي وقتها في القاهرة. قالت فحوى الرسالة إنّ بونيتا قضت نَحبها في حادثِ سيرٍ وعلى والدي التوجّه فورًا إلى نيقوسيا لرعايةِ فادي الذي نُقل إلى دار أيتام. هكذا عَرَفَت والدتي قِصّة بونيتا وفادي.

تمّ الطلاق بينهما بتكتّمٍ من العائلتين وغادَرَت بعدها والدتي إلى لندن. لم يكن زواجها مُهمًّا بالنسبة إليها، وقِصّة بونيتا كانت طريقًا هيِّنة المأخذ للتخلّص منه دون الحاجة للاستماع إلى لومِ العائلة لقرارها.

اضطرّ والدي إلى جلبِ فادي من نيقوسيا إلى تنّورين. عشتُ وأخي في منزلٍ جدّتي بعد أن سافر والدي إلى دبي مُحاولًا الضغط على والدتي لعلّها تعود إلى لبنان، لكنّها لم تعبأ بأحد. لم تبقِ على شيء، استقرّت في لندن لفترةٍ طويلة تلت، ثمّ أرسَلَت خالتي بعد أربع سنوات إلى لبنان لتشدّني عن حضن جدّتي.

4

فوضى سيّارة المرسيدس الفارهة والواصلة للتوّ دهست حاضري هناك. التقطني حارس خالتي الشخصي. لا أتذكّر هيئته، لكنّني لن أنسى ظلّه الضخم.

زجّ بي إلى مقاعدَ جلديّة سود. كلّ شيءٍ كان أسودَ يومها، حتّى وجه خالتي الأبيض. لم تلق السلام على أحد. ولم تستأذن جدّتي قبل أن تخطفني حسب توصيات شقيقتها. تَأَكَّدَت من اسمي لأنّها لم تلتق وإيّاي من قبل، ووالدتي لا تحتفظ بصوري الثقيلة على رحالها. حَوَّطَت رقبتي لتكفّني عن النظر إلى جدّتي وأخي.

تاهت عيناي إلى الوراء ولمحتُ سيلان وداع

جدّتي يطارد غبارٍ السيّارة الوقحة. وقف آخي بالقربِ منها ذاهلًا بما يرى ويسمع ويشعر. وَضَعَت خالتي يدها فوق عينيّ سِدادًا لهما. لا تريدُ لطفلٍ أن يتذكّر هذا المشهد. لم تعلم أنّني لا أبصر كما يبصرون. شارفتُ البكاء لكنّني لم أفعل.

كانت تلك لوحتي الأخيرة التي خزنتها مُفكّرتي في لبنان. كانت تلك الصور المتقطّعة هي الأخيرة الناجية من حوادثِ فقدانٍ لَملَمَت بفزعٍ جثثًا عصيّة على النسيان. يتآكلها الحاضر وتبعثرها صيحات الحنين، ليرسم الغد حقيقتها المنكوبة بالذكرى.

سألتُ خالتي عن أخي وجدّتي، وعن تنّورين وكلّ ما أملك هناك...

– بعدين حبيبي بعدين، بس يروق البلد بترجع، بوعدك.

راق البلد وانتكب شي خمسين مرّة، وما رجعنا.

لم أرَ جدّتي وفادي وتنّورين منذ ذلك اليوم.

بقيتُ مع خالتي حتّى وَصَلَت والدتي من لندن وسافرنا معًا بعد أيّام.

بعد وفاة جدّتي في عام 1993، اضطرّ والدي

إلى العودة لتصفية منزل تنّورين ولأخذ فادي معه إلى دبي حيث بدأ تأسيس حياته. أسرّت والدتي خبر رحيل جدّتي وقالت إنّها لم تسمع شيئاً عنها وعن والدي وأخي مذ غادرنا لبنان.

صفعني صوت مجلّات والدتي وهي تتصفّحها وأعادني مجدّدًا إلى بيروت...

– لم تجيبي عن سؤالي، ما نسب الشفاء من سرطان المعدة؟

خفتت في قراءة المجلّة، أغلقتْها ثمّ وضعتْها على الطاولة بتنظيمٍ مُترف موسومٍ بالعلم البريطاني. كانت صرختها على أهبة الانطلاق وحَنجرتها جاهزة للحلبة.

اتَّسَعَت عيناها، كَظَمَت حنقها ثمّ خَلَعَت نظّارتها وحاوَلَت أن تنطق غمامتها الشاحبة التي كانت حتمًا ستنهي حوارنا بما لن يعجبني، لكنّها تَراجَعَت في الوقت الضائع.

رَسَمَت على وجهها ابتسامةً بلا ألوان وكأنّها تحاول ازعاجي عقابًا لما قُلت.

– نسبة ضئيلة يا قلبي. البقيّة بحياتك سلفًا.

قالت بهدوءٍ ثائر وكأنّها تشعر بالنصر بعدما دَفَنَت من سألتها عنه. ما تَمالَكَت أن انتَقَمَت. ثنّت

الوجع وصاغت انزعاجها الواقِر في صدرها على شكل إجابة.

حياتها تعجّ بالأباطيل، وعندما احتجتُ إلى واحدةٍ منها، قَرَّرَت أن تعتكف الكرّ والفرّ وأن تعلّق على وجهها ناصِية الصدق.

ربّما تَذَكَّرَت يمينها الغليظة يوم حَصَلَت على شهادتها المبرورة في طبّ الأسنان.

مِطرقة القاضي

(اِشـتباكٌ مع بيروت)

السعادة لحظة ظلّ عابرة،
يقتلها أيّ ضوء.

1

«من يتخصّص في المآسي والأحزان يغدُ أكثر شفافية في التطلّع إلى مآسي الناس.»

مي منسّى (ماكنة الخياطة)

وصلتُ إلى المنزلِ مُنهكًا بعد أن عملتُ أديم النهار. شعرتُ بالخمول يدبّ في جسدي ويحاربني بمكرٍ. كعّ ذهني وأخذتني ثُقلةٌ غالبة وغريبة، تسلّلتُ فورًا إلى غرفتي واندسستُ في منامي الوثير والخائن لمن قتل البرد ليله وبات يستدفئ بثيابٍ ممزّقة. انضويتُ إلى عالمٍ آخر لعلّي أستفيق.

لا أريد مقابلتها ولا الانجرار إلى أحاديثها. لا طاقة لي بها وبجدالاتها البيزنطيّة التي تطارح فضلات أعصابي. حَنجرتي واهنة وحبالي

الصوتيّة فاترة القوى ومُرهَقة مِن نشاز حواراتها وسماجتها. وجهي المُتعب لن يستفزّ أمومتها.

أحتاج إلى أن أدفن نفسي في النوم. النوم فقط ولا شيء سواه فقد نَضَبَت طاقتي.

النوم هو فردوسي الوحيد وسباتي المؤقّت وانفصالي التام عن إشارات مرور الحياة وزحمة سيرها الخانقة. غيابٌ عن تلوّث البشر وقسوتهم وهمزهم ولمزهم. نقاهةٌ من ضوضاء المشاعر وثرثرة المقاهي وأنين الجِراح وصراخ الذكريات.

ورغم اشتعال بيروت في الخارج، فإنّ نفحة البرودة التي دربكت غرفتي مَنَعَت جسدي من التنازل عن أيّ قِطعةٍ من ملابس عملي العشوائيّة المُثقلة بأتربة المخيّمات ونظراتها العارية لي. كرهتُ خزانتي وما فيها من ثياب بعدما صعقتني أجسادهم المرتجفة بردًا، وبيوتهم، أو ما تُسمّى هكذا، التي تتأرجحُ مع هبوب الرياح وتنكمش عليهم بعد كلّ زخّة.

بعضهم يستبشر بالمطر خيرًا، واللاجئ يلعنُ مواقيته.

تاهت بصيرتي في السقف ولم أدرك من منّا عُلِّقَ فوق الآخر. هل أنا في الأرض أم هو؟

زفيرها المزعج يهرب من محرابها ليجالس

قلقي وشعوري بالذنب. لا أستطيع الفرار منه، فالعتمة احتَلَّت الجزء الأوسع من المكان.

لم أقوَ على الحراك لأصل إلى مفتاح الضوء الصغير الساجد فوق مكتبي بالقربِ من روايةٍ لا أعرف اسمها ولا اسم مؤلّفها، فقد مُزّق الغلاف ورُسِمَت فوق اسم الرواية وصورة المؤلّف ومعلوماته الشخصيّة في آخر الكتاب فضلات قلم، وكأنّ مالك الرواية يرفض الإفصاح عن هُويّة الكاتب. تمامًا كما ترفض والدتي دومًا الإفصاح عن هُويّتها، وكأنّ جزئيّتها العربيّة بقايا لوشمٍ مختبئ لا يجالسه إلّا من يعرّيها.

لم أكن بعيدًا عن الصباح بعد أن احتممتُ ملء جفني. شَرقة بالقهوة الباردة أوصلتني إلى والدتي المُنتصِبة قبالتي في الغرفة. هببتُ مذعورًا أبحث عن حلمٍ طُعِن بكابوسٍ فمات. حاول الصعود إلى السماء لكنّه ارتطم بسقف الغرفة وسقط مُخيّمًا على جسدها المُدلَهِم. ظِلّ يدها اليمنى ينعقفُ على خاصرتها، وظِلّ اليسرى يطوّقُ منفضةً تحملُ جثمان سيجارة تتلّوى.

– لِمَ عليّ أن أرافقكِ؟ لستُ بحاجةٍ إلى السيّارة، يمكنكِ الاحتفاظ بها اليوم. سأنتظركِ

في المنزل.

قلتُ لها بنصفِ عينٍ ونصفِ فمٍ ونصفِ روحٍ وبلا صوت وأنا أثني وسادتي وأضعها خلف ظهري وقد تحوّل رأسي إلى كرةِ جِصٍّ بعدما طَلَبَت منّي مرافقتها إلى منزل صديقتها في شارع الحمراء.

– لن أفعل هذا في بيروت... هل جُننت؟ تريدني أن أدخل ماراثون القيادة مع العرب؟ هذه مصارعة ثيران... حلبة ملاكمة، ليست قيادة أبدًا.

أجابت كمن رُوِّعَ قلبه بسماعِ مصيبة.

والدتي تَتَحصَّن بشروط السلامة عند القيادة في لندن، لذلك ترفض خوض المغامرة في شوارع بيروت المراهقة ذات العشوائيّة المروريّة والبشريّة.

عند نزوحها المؤقّت من لندن إلى بيروت أتحوّل من مترجمٍ إلى سائقِ أجرة. عليّ مرافقتها إلى منازلِ صديقاتها وزياراتِها العائليّة لخالها المصاب بعللٍ شائكة في نخاعه الشوكيّ يسافر على إثرها إلى باريس ليستطبّ في رحلات علاجٍ لا تُعرف أبعادها وحدودها الزمنيّة. يمنحني سفره فرصة التخلّص من عناء زياراتها وزيارات خالتي المستمرّة له.

جالت المنزل بحثًا عن علبة سجائرها وكأنّها

تعمل مع الأمم المتّحدة وتبحثُ في بلاد سومر عن أسلحة الدمار الشامل غير الموجودة. أو ربّما تبحث بضراوة عن تماثيلَ أثريّة أو مسلّةٍ أو في أسوأ الحالات عن لوحٍ مسماريّ لنَفيه في متاحفهم التي تعاني من سمنةٍ مفرطة ناتجة عن التهام الآثار العربيّة الدسمة.

أقامت والدتي الدنيا ولم تقعدها. ألبست آرلين، خادمتها الشخصيّة التي تعلّقها كحمّالة مفاتيح أينما ذهبت، جام غضبها الملحمي. جاءتها وصليل الشرّ يقدح من أطرافها. صَرَخَت في وجهها كعُقابٍ جائعة وهَدَّدَتها بالطرد إن لم تظهر العلبة، ثمّ تَوَجَّهَت نحو الشرفة لتخطّ حديثي مع بيروت وتجزّ انفرادي بمدينةٍ حزينة أدمَنَت أدخنة القنابل منذ سنين.

وَصَلَت علبة السجائر، كانت تتخبّط تحت الطاولة. غضّنتها والدتي، فهي فارغة. انفَجَرَت وثارت ثائرتها في وجه آرلين وأمرتها بشراء أخرى، ثمّ أكَّدَت عليها أن تكون العلبة أوريجينال كالتي تُحضرها معها من المملكة.

– أخشى عليكِ من السجائر.

قلتُ لها ونحن في طريقنا إلى شارع الحمراء.

– وهل قدّمتَ هذه النوعيّة من النصائح الجليّة

لوالدك؟ هل انتصحته للإقلاع عن النساء والقمار والتدخين أيضًا؟ أم حصص النصح والإرشاد هذه مخصّصة لي فقط؟

زَمجَرَت منفعلة البراثن.

– لم أقصد النصح، عبّرتُ فقط عن مخاوفي إزاء صحّتكِ.

قلت، بعد أن استعوضتُ الله في وقتي المهدور.

– حسنًا... سأجبلُ السؤال بطريقةٍ أخرى. هل عبّرتَ عن مخاوفك إزاء صحّة والدك بعد جَلَساته النسائيّة الغنيّة بالخمر والتدخين والقمار؟ هل ارتبتَ يومًا في أموالك التي يودّرها؟ كم أخجل عندما يخبرني أحدهم أنّه شاهده في الحانات المشبوهة مع الروسيّات والأوكرانيّات. سيُصاب بالسفلس وسيموت وحيدًا عندما يهجره الجميع وأوّلهم فادي.

تنهّدتُ مللًا وحيرةً منها، وهمست...

– ولِمَ الخجل؟ من شاهد والدي وأخبركِ كان في المكان نفسه.

– لا يهمّني أين كانوا. يهمّني والدك، فهو زوجي... كان زوجي، وما زال والدك.

– كان شريك حياتكِ وانتهى الأمر. لا تأرقي، لا أبعاد للموضوع على حياتي. الساعات القليلة

التي عشتها معكما فَعَلَت ما فَعَلَت بي وجعلتني لا أبالي بكما.

2

هَوَت عليّ باستفساراتٍ عن كلّ شيءٍ يعترض طريقنا، فهي لا تفقه بالخرسانات المسلّحة والثُكنات العسكريّة في بعض شوارع بيروت ولا بإشارات المرور التي تركت الشوارع وسكنت دور العجزة بعد أن قرّر المشاة العبور من حيث يشاءُون وقرّر سائقو السيّارات استباحة الشوارع بلا عقود زواجٍ رسميّة تُعرف بِـ«رخص القيادة».

من يسمعها يفترض أنّها لم تزر بيروت من قبل. لا تملّ من أداء دور السائحة الأجنبيّة التي صعقها هذا المذنّب الفوضويّ الغريب.

والدتي الدميمة الطباع لا تجيد التعامل مع شوفيريّة بوسطات حملايا وتنّورين. تجهل كلّ

ذلك لأنّها ببساطة ليست عَليا!

وعهدير المرسيدس اللّي كانت ناقلتنا من الأشرفيّة على شارع الحمرا لم أتذكّر عَليا. لم أتذكّر شيئًا، لم أفكّر إلّا في الوصولِ إلى منزل جيسيكا، صديقتها الأنتيكا الساكنة بالقرب من كافيه كوستا.

«ويخرب بيت عيونك يا عليا شو حلوين...»، صَدَحَت فيروز.

بمقتضى وصف والدتي الدقيق، فهذا المحلّ الصغير كان منزل صديقتها الشيعيّة – العراقيّة الأصل – زينب في عام 1972. قالت إنّها شيعيّة حتّى قبل أن تذكر اسمها وكأنّ طائفتها وديانتها هما العنوان الأبرز لمن تكون.

تَحَدَّثَت بمناهضات زينب الدائمة لظاهرة «الميني جوب» التي ذاع صيتها كثيرًا في لبنان وبعض الدول العربيّة الأخرى في فترة السبعينيّات. قالت إنّ بعض عناصر الشرطة كانوا يلاحقون الفتيات اللائي يرتدين التنانير القصيرة في بغداد ويدلقون عليهن «البويا» أو الألوان المُستعملة في تلوين الجدران. قُتِلَت واحدة من أولئك الفتيات عندما دهستها سيّارة في أثناء هروبها من محاولة دلق الأصباغ على ساقيها

في مِنطقة الباب الشرقيّ بالقرب من مدرسة «راهبات التقدمة» حيث كانت الفتاة تدرس. يومها شَعَرَت زينب بالغبطة لانتصار العراق على الفساد وتمنّت نهاية مشابهة لفوضى الميني جوب في لبنان.

– إلّلي ببِلتمو على الحسين شيعة؟ لأنّه أهلها كانوا يِلتمو.

أرادت أن تقطع الشكّ باليقين بخصوص شيعيّة صديقتها بعدما حقنتني بجرعةٍ مكثّفة عن أحوال الأمّة العربيّة في السبعينيّات.

أومأتُ إليها بالإيجاب ثمّ قلت: «إيه شيعة. واسمها يلطمو مش يلتمو. بالطاء مش بالتاء. شدّيلي براغيكي شوي».

– whatever... هالبناية كانت store ابن خالي مهنّا.

تواصل سرد تفاصيل عائلتها في لبنان. تتحدّث بهم كواحدةٍ من برينسيسات العائلة المالكة في مصر واصفةً إرثها الضائع بعد أن أعلن الضبّاط الأحرار انهيار الملكيّة وبزوغ جُمهوريّة مصر العربيّة. الارتداد إلى الماضي واحدة من هواياتها غير القابلة للتغيير.

بعد لحظات ستقول إنّ هذه الشمس كانت تشرق من الغرب قبل الحرب الأهليّة، وهذه

السماء كانت أقرب إلى الأرض قبل اجتياح إسرائيل للبنان. والدتي تعرفُ ما حلّ بلبنان من نشرات أخبار والدها المشهود له بضيق الباع في السياسة ورواياته المشكوك في مصداقيّتها. كان يبني وجهات نظره وفقًا لأوهامهِ الشخصيّة وأخبار الـ« BBC».

وصلنا إلى المكان المعهود...

نَزَلَت من السيّارة مستنفرة وأغلَقَت الباب بتمرّدها البلشفيّ المعتاد. لم أسألها عن سبب انزعاجها فهذا مِن نافلة القول. الطريق لم تكن سالكة والرطوبة مرتفعة ورائحة القمامة تلقي علينا تحيّة الصباح من كلّ بقاع الحيّ. أزمة نفايات لبنان أعجوبة الدنيا الثامنة، وتحمُّل والدتي لكلّ هذا سيكون إعجازًا لن يتحقّق إلّا إذا شاب الغراب.

لم ألمح سجّادة حمراء عند عتبات بناية صديقتها لتنتشل لها أهازيج الترحيب. ربّما كان هذا السبب الرئيس لظهور غمامة الغضب الهائج على حاجبها الأيمن وارتفاع الأيسر.

طَلَبَت منّي العودة بعد ساعة لتستقلّها سيّارتي إلى جورج، الحلّاق الخاص بها في مِنطقة أنطلياس. ترفضُ الذهاب إلى غيرهِ فهو

الأكفأ في معرفة خبايا خصل شعرها ويجيد اللعب على أوتار بصيلاتها الحسّاسة. انتَظَرَت قبالة البناية قرابة خمس دقائق. من غير اللائق قرع الباب قبل الموعد المحدّد. لا تتقاعس والدتي عن ممارسة بريطانيّتها في لبنان.

– يا إمّي فوتي حتّى لو مبكْرَة شوي إنّه معليه يا قلبي نحنا بلبنان مش بلندن. هون العالم بتوصل بعد الموعد بساعة وكتير طبيعي. إنتِ جايي قبل الموعد بعشر دقايق وخايفة تطلعي! بتعرفي ممكن يشيلوا تمثال رياض الصلح من الداون تاون ويحطّولك شي monument تقديرًا لاحترامك للمواعيد. أساسًا صاحبتك بتكون ناسية إنها عازمتك.

قلتُ لها بجذعٍ معلّق في نافذة السيّارة.

بيروت تراقب هزليّة والدتي وتستغرق في الضحك.

3

مناخ شارع الحمراء هادئ مُتعب صباحًا، مجنون راقص ليلًا.

كانت الساعة السابعة صباحًا من يومٍ في فصلٍ لا أذكره. الحمراء نائمة، تأخذ قِسطًا من الراحة بعد تنصّتها على قصص العابرين الهوجاء التي دارت فصولها ليلة أمس، وأنا أجول في الشارع جادِفًا وباحثًا عن ونيسٍ ينقذني من إملال انتظار والدتي.

الهدوء غريب حتّى لا أكاد أسمع إلّا نبض قلبي وكأنّه قطعة معدنيّة في حصّالة نقود.

ثرثرة الحانات هدأت قبل قليل والواجهات النائفة لم تسكر، وحدها الوجوه تفعل. هذه البنايات

مكفهرّة في وجه المارّة، تسرق أفراحهم الافتراضيّة وتقذفهم بشقاء انتصابها في أوردةِ شوارعَ عصرتها قسوة المعارك فاحتَفَظَت بمصيرِ أصحابها خلف أحجارٍ عاصرت الحرب الأهليّةَ وقنّاصيها وكانت الشاهد الأصدق، وربّما الوحيد، على الأنين المُلثّم الذي دخل لبنان عنوةً وسرق خزينته برقمٍ سريّ مزوّر.

صورة الشحرورة صباح تنتصب فوق كافيه «كوستا» الذي لا يعلم بعد أنّه لن يسلم من يد الإرهاب. تبتسم الصورة للمارّة وتعزف بربابة صباحات بيروت لحنًا يرفع عنها وعنهم غمامة ليالٍ ماجِنة ما زالت الأفواه ممدّدةً عند أقدامها تستلقي النظر إلى ملابسها الداخليّة المبلّلة بنشوة الخوف.

هنا كورنيش بيروت.

أشعر بنسيمه وكأنّه قيثارة طافية تمازح شارع الحمراء. بدأت رائحة البحر المدبّج بحُفَداء الشمس تدنو منّي وتتلألأ في ذهني. باشر مخر البواخر يومه الطويل وثمّة بعض الأشخاص يتريّضون عند الساحل، بينما قرّر آخرون الجلوس مع بيروت شاكين لها همومهم. امتنعتُ أنا عن إزعاجها بمشكلاتي التي لا تنتهي. راقبتُ

صباحها السعيد الذي لا يشبهني ولا أيّامي القاتمة.

«عرانيس... عرانيس... عرانيس».

ابتسمتُ وتذكّرتُ ردّة فعلها ذات يوم حين سَمِعَت بائع الذرة وهو يشوّح بيديه من خلف عربته الصغيرة عند الروشة ويصيح بالعابرين وكأنّه يجبرهم على شراء ما يبيع... «عرانيس... عرانيس...».

– شو يعني أرانيس؟

سألَتني يومها عن معنى الكلمة.

– جمع أرنوس!

أجبتها بلا تفكير ثمّ اكتشفتُ كمّيّة الغباء المفرط في إجابتي المُتهكّمة والساذجة، فعاودتُ شرحها.

– عرنوس يعني corncob.

– بعرف هالكلمة بس ناسيتها. بدّي one أرنوس، بس يكون نظيف و blond.

ربّما لو كانت معي الآن لعاودت السؤال مجدّدًا عن معنى كلمة «عرنوس»، فذاكرتها اللغويّة كالغربال، على عكس حذاقتها الحادّة وفِراستها الجغرافيّة والاستراتيجيّة المتعلّقة بمنزل زينب وممارسات عائلتها الشيعيّة ومتجر ابن خالها

الذي كان يسكن في مِنطقة ضبيّة عندما خطفته جهة سياسيّة معلومة الهُويّة في بداية الحرب الأهليّة. فرّ إلى كندا بعد إطلاق سراحه ثمّ انقطع الحبل السريّ لأخبارهِ رغم بقاء مشيمته في لبنان. قال البعض إنّه فقد شطرًا من عقلهِ جرّاء عمليات تعذيب تعرّض لها.

لن أتناول «عرانيس» اليوم ولن أذهب إلى «ستاربكس» لاحتساء القهوة. صدقًا لا أحبّها. لن أحتسيها مهرولًا على كورنيش بيروت لأحشر أنفي في جوفِ طبقةٍ أرستقراطيّة بيروتيّة تلخّص معنى أن تكون من أهل العلياء بقهوةٍ محلّيّة ختموها بطوابعَ برازيليّة، أو بحذاءٍ رياضيّ luxurious موسومٍ بعبارة «صُنع في إيطاليا»، ولا أعلم عن أيّ إيطاليا يتحدّثون. تلك القريبة من برج حمّود اللبنانيّة؟ أم المحاذية لدير الزور السوريّة؟

وجود الحذاء في الداون تاون محمولًا على كفوفِ البحر المتوسّط يكفي لمطابقته شروط البريستيج اللبناني.

دنت منّي امرأة بدت لي غير لبنانيّة من بضع كلمات نطقتها بلهجةٍ غريبة حثّت الخطى للبننتها وأخفقت. جلست أرضًا بخفّةِ راقصة باليه متمرّسة وقد ظهرت على جبينها قطراتُ عرق

ستسقط قريبًا على وجنتيها. نحت بعضًا منها فور انبطاحها السريع والسلس على حقيبة يدها المصنوعة من الخوص الأصفر والأحمر والأزرق. نقطٌ خضراء تمركزت أسفل وجهها وشدّة سمرته، تحديدًا عند ذقنها الواسع المشقّق الغريب الألوان والمظهر.

أخرَجَت من جلبابها الأسود المتّسخ حُصيًّا تستعملها لاستجلاب الزُبُن ففهمتُ شعبذتها. قالت إنّها ستقرأ أسارير كفّي وستعرف مستقبلي بما تلملمهُ من فوق الأرصفة. حاولتُ الابتعاد عنها على غير جدوى. أصرّت على قراءة بختي، ومن دون مقابل.

– إذا عجبك اللّي بقوله اعطيني لي بيطلع من ضميرك وإن شاء الله ما يكون بالك وجعان ورزقي ورزقك على ربّ العباد. وأنا واللّي شقها خمس أصابع من إيد وحدة ومن رجل وحدة ما بكذب.

سَرَدَت أمورًا مشتركة بيني وبين ملايين البشر...

تعب، سقم، انتظار، ترحال، عمل جديد، أعداء لدّ، حرف اللام. ظننتُ أنّها تقصد لبنان بهذا الحرف، ثمّ تذكّرتُ تلك اللام اللعينة في لندن. لم تنسَ العجوز خزعبلاتها عن عينٍ حاسدة تحوم

حولي وتمنعني عن تحقيق تطلّعاتي، والسمكة والأرنب والعصفور الذي تريّشه السقطات والنكبات، وغيرها من التفاصيل المُملّة.

وفي معرض سخافتها، لمحتُ امرأةً مُخمّرة الوجه تتقدّم منّا.

وبلا مقدمّات، طَلَبَت من البصّارة أن تخبرها إن كان زوجها المخطوف في العراق سيعود أم لا. كانت في مسيس الحاجة لكلمةٍ تُطمئن نفسها.

عيناها تتساءلان... هل بجّوه بمكروه؟ قُتِل أم ما زال في عداد الأحياء الأموات؟ تتوق إلى معرفة مصير زوجها من امرأةٍ عجوز تلعب بمصائر الناس فوق الأرصفة القذرة. نفسها الأرصفة حيث يتسكّع نهدا امرأة لاهية خَرَجَت للتوّ من حانةٍ ما وهي تجهلُ الطريق. روّاد الأرصفة تربطهم عَلاقة غير سويّة مع الطُرقات.

تُرى كم هو كبير ذلك اليأس الذي اخترق حياة تلك المرأة وجعلها تسأل عجوزًا محتالة عن زوجها المفقود؟

بعد حديثهما الطويل، قالت لها إنّ زوجها على قيد الحياة. طمأنتها، سيعود قريبًا. فاضت عَينا المرأة وعلا صوتها بالبكاء من شدّة تأثّرها بما سمعت. دعت للعجوز بالعمر الطويل والصحّة

وراحة البال ثمّ طبعت قَبلة شكر مجّانيّة على خدّها، فردّت البصّارة بقبلةٍ إسخريوطيّة.
طالبت العجوز المرأة بخمسةِ آلاف ليرة لبنانيّة تكليلًا لمسعاها في تطبيب قلقها على زوجها وحقوقًا فكريّة لهرطقاتها، لكنّ الأخيرة كشفت عن عدم امتلاكها أيّ نقود.
– لْكان روحي، زوجك مش عايش بس أنا ما حبّيت إقهرك. زوجك ميّت، قتلوه من شهر وسبع إيّام ساعة ثمانية الفجر وزتّوا جثته بنهر دجلة، لا، أستغفر لله لحظة... الله لا يكذّبني، بنهر الفرات مو دجلة وبالضبط بمنطقة القرنة صوب شط العرب.
غادَرَت كلتا المرأتين المكان بعدما ذَرَفَت العراقيّة المسكينة دموعًا على زوجها المخطوف، وها هي الآن تبحث عن بصّارة أخرى تنقذه من الغرق في نهر الفرات، بينما تبحثُ البصّارة عن شخصٍ آخر تدفنه في نهر دجلة – الله لا يكذّبني الفراتَ وليس دجلة.
فكّرتُ في الخمسة آلاف ليرة القادرة على إحياء زوج العراقيّة.
زوجة بخيلة... لم تدفع!
قرّرتُ العودة سابحًا في دجلة والفرات إلى

منزلِ صديقة والدتي لأصل قبل الموعد.

أثبتُّ لها أنّني من بلاد الحمّص والفتّوش والبابا غنّوج لكنّني أستطيع الوصول قبل موعدي بدقائق رغم قَطع الطرق وغرق الأنهار والأبحر في الجثث.

وإن تأخّرت، فستتفهّم والدتي الوضع. نحن العرب لا نفقه إلّا بالاقتتال، لأنّنا أزيار حروب، وهي على دراية كاملة بهذه الحقيقة التي لا تُفنّد.

«قال قايل إشيا بشعة عنّي... معليش... معليش»، قالت فيروز.

شُـجيراتٌ من حديد

(حنانيك يا أيّها الموت)

تُغيّر الحروب زمانها والمكان وتحتفظُ بالضحيّة...
تحكمُ جيشًا جرّارًا من الأوغاد،
وكلاب حراسة تقتات على خوف من لا خوف في
عروقهم.

1

«وكأنّهم لا ينتظرون شيئًا سوى الموت الذي تربطه بهم علاقة خاصّة، حميمة، يستهزئون به ولايحسبون له حسابًا وحين يأتي يقابلونه بالسخرية والضحك.»
خالد خليفة (دفاتر القرباط)

موتٌ واحدٌ يكفي ليحوّلك إلى إنسانٍ ضعيف.
أتممتُ أوراقي في مبنى الأمن العام بعد وقوفي في طوابيرَ بشريّة عِظام. خطوط البشر هناك آزت سورًا صينيًّا في الطول. خَرَجَت الأذرع من البناية حاملةً الشُعل اللبنانيّة الأمنيّة الأولمبيّة. لحسن حظّي كنت منهم. نجحتُ في إنهاء معاملتي، شوّحتُ بيميني ورسمتُ علامة النصر بيساري. تَمَّت العمليّة بنجاح بعد هرولاتٍ بين المكاتب وابتسامات صفراء وزّعتها تزلّفًا على

حزقةٍ من الرُتب. شعرتُ كأنّني قنبلة تتراشقها أيادي الموظّفين كي لا تنفجر في مكاتبهم.
تشبّثتُ بحافلةٍ ستقلّنا، أنا وظِلّي، إلى جونية. كان علينا الانتظار حتى تمتلئ بالركاب لننطلق، لكنّها امتلأت وفاضت بأدخنة سجائر السائق وزميله في نضال التدخين الجالس عن يمينه والمتفاخر بكرشهِ البارز تحت بلوزته الضيّقة.
يستمعون إلى أغانٍ غريبة يجبروننا على استنشاقها مع أدخنة احتَشَدَت فوق قِطعٍ صغيرة وُضِعت أعلى بعض نوافذ الحافلة، كُتِبَ عليها « NO SMOKING». يأخذون المجّة بعد الأخرى غير عابئين بإرشادات الدولة ومرضى الربو.
«الله يذكرك بالخير يا شوفير المطار»، تمتمتُ مع نفسي.
سألتُ أحدهم عن سبب مخالفة السائق للقوانين الموضوعة أمامه. كانت تجربتي الأولى مع حافلات لبنان، لكنّ بسط هذا الرجل معهم طويل، هكذا أخبرني لاحقًا. مارس جميع أنواع العدو والهرولة والقفز بالزانة في أثناء محاولاته إلقاء القبض على حافلة تقلّه إلى عمله. كان كالكنغر الصغير الذي يحاول القفز إلى جيبِ أمّه. أتى الرد على سؤالي من الخلف، من امرأة

لبنانيّة عجوز تستفرغ صوتًا نشازًا تضع عند مداسها مجموعة من أكياس الخَضراوات والفاكهة وفي يدها سيجارة...

«الشوفير مش لبناني، هيدا سوري، واللّي حدّو كمان سوري، مش هاممن البلد... معك ولّاعة؟ بدّي دخّن سيجارة، طوشونا بهالأغاني، بلّش راسي يوجعني!»

النسوة في الخلف يشتمن السائق ويطالبنه بالتحرّك الفوري وإلّا فسيغادرن الحافلة. وقبيل انصياعه لتهديداتهن، سمِع السائق مناجاة امرأة تتضرّع ليلتقطها عن الرصيف. توقّف متحجّجًا بإنسانيته المقدّرة بـ١٥٠٠ ليرة. صعدت المرأة وجلست عن يسار امرأة أخرى في الأربعين من عمرها بملابسَ رثّة وخشنة المظهر وذائبة اللون. كانت تهاتف أحدهم شارحةً له بلهجةٍ عراقيّة ما تُكابد وعائلتها المكلومة بالمصاعب والتحدّيات مذ أن جلوا عن بغداد وتركوا ممتلكاتهم برسم الحرب ووصلوا إلى بيروت الحلم.

«والله يا أبو علاء إلى حدّ الآن كُل شي ما مفتهمين، گاعدين وساكتين الله وكيلك».

انتَشَت المرأة من هذه الصدفة لأنّها عراقيّة أيضًا. انتظرت انتهاء المكالمة وشرعت بالحديث

إليها...

– عِراقيّة؟

سألَتها بابتسامةٍ متينة وهي متيقّنة من عراقيّتها، فاللهجة كانت بيّنة الملامح.

– نعم... عراقيّة، وحضرتچ؟

سألَتها بذات الابتسامة والشعور.

– أكيد عراقيّة.

– هلا بيچ، والنِعم منچ والله. آني أم گورگيس.

– تشرفنا، آني أم فاطمة.

وبعد مجموعة من الأسئلة الاعتياديّة عن وضع لبنان ووضع العراق باغتتها أمّ گورگيس بسؤالها المُنتظر...

– هل قدّمتم طلب لجوء في الأمم المتّحدة؟ وصلتُ وعائلتي إلى بيروت قبل أيّام ولا أعرف ما هي التدابير اللازمة للحصول على إقامةٍ أو ورقةِ حماية قانونيّة لأشعر بالأمان. قالوا لي إنَّ أقامتي في لبنان ليست قانونيّة وأنا قلقة بخصوص هذه المسألة.

– نعم قدّمنا، لا توجد تدابير. فقط توجّهي نحو مبنى الأمم المتّحدة، مفوّضيّة اللاجئين تحديدًا في منطقة الجناح لتحصلي على موعد لمقابلتكِ الأولى. سيطرحون عليكِ أسئلة مملّة

يعرفون إجاباتها مسبقًا. عليكِ أن تختصري الأكاذيب. يجب أن تكون منطقيّة ومبرّرة.

– أسئلة مملّة وأكاذيب؟

سألَتها باستغراب.

– نعم، على شاكلة ما هي أسباب وجودكِ في لبنان. كأنّهم يجهلون الوضع الأمنيّ في العراق. هل ينتظرون أن أقول لهم إنّني هنا في رحلةٍ سياحيّة لزيارة منتجَعات جونية مثلًا؟

ابتَسَمَت أمّ كَوركَيس ابتسامةً مُرهقة وقالت بملامحَ ممتزجة بالفضول والضياع: «وكيف أجبتي عن تلك الأسئلة؟»

أخَذَت أمّ فاطمة نفسًا عميقًا كمن لم يذق طعم الهواء من قبل...

سُئِلَت عن منزلها في مِنطقة زيّونة البغداديّة حيث وُلِدَت ولها مع جدرانه ألف ذكرى وبسمة ودمعة. هل كان عليها أن تفصح عن مدى ألمها كلّما تذكّرت أنّها غادَرته كي لا تُقتل؟

استجوبوها عن شارعٍ كان ابنها الوحيد يركض فوق أحضانه. ابنها لم يبصر الشباب، فالعُبُوّات الناسفة كانت تتربّص به لتسرق أحلامه المكتوبة على حائطٍ انهار بقذيفةٍ متأثّرة بكحول الديناميت. فبدلًا من أن تستهدف حدائدهم جهةً

سياسيّة، خانها الطريق لتجد أنفاس بعضهم مقرّاً آمنًا لها.
كانت أمّ فاطمة حانقةً على أميركا لأنّها السبب في غزو العراق وتفجير الطائفيّة في بلادها. قُتِلَ زوجها ظَلَفًا لأنّه شيعيّ، هكذا روت قِصّتها في السفارة الكنديّة في بيروت قبل أن تقدّم وأولادها الخمسة طلب لجوء إلى بلادٍ صعبة البلوغ قالوا لها إنّها قارسة البرودة، وهذا كلّ ما تعرفه عنها.
عندما سألوها عن سبب اختيار كندا قالت مبتسمة، «تْراب البعيد دُوة العيون».
عَلاقاتهم في العراق لم تعرف نهايةً مُحتمة. كانت قيد شرار الطائفيّة وكلمة الرئيس وخطاب الزعيم وأوامر القائد وفتاوي الشيخ وكمين البغض. كانت الشعارات تؤلّب الأخ على أخيه والصديق على صديقه وتؤجّج الفناء على الحياة. هذا يهدّد وذاك يتوعّد ليستولي على حياتك قبل أن يسبقه أسافل إبليس في انتزاع شرف المَهمّة الجليّة منه.
عزفوا على نقاط ضعفهم بنوتاتٍ دمويّة التهمت موسيقى حياتهم لحنًا بعد آخر. مواكبُ من القتل والخراب والمؤاحنة والدمار تجول في كلّ مكان. حِيَلٌ على البقاء تتطاير هنا وهناك. صرعةٌ

لصوصيّة تَرَعرَعَت فوق أرصفتهم حتّى باتت ابنة شوارع. كان ميلهم السياسيّ جنحة ودياناتهم وطوائفهم أسبابًا منطقيّة للفتك بجماعاتٍ كاملة وتهجيرها من أرضها وخلع ثوب الحياة الخَلق عنها.

هي أرملة وثكلى وعراقيّة وعربيّة وتبلغ قرنًا من العمر.

لا شيب على شعرها ولا تجاعيد تزيّن وجهها، قوامها مستقيم ولا انحناءات تستعلي ظهرها. أمّ فاطمة عجوزٌ قبل أن تحطّ عن ظهر الصِبا رَحلها. أمّ فاطمة مؤمنة وترتدي الحجاب. لم يلمسها إلّا زوجها، هكذا تعتقد. لكنّ بعضهم اغتصب حقّها في الحياة واخترق دفاعات جسدها المحصّن بالأقمشة والأدعية من جميع الاتّجاهات وهي لا تعلم، أو ربّما تعلم وتصمت، خوفًا من الفضيحة.

سألوها عن الوطن...

لا يُمثّل لها الوطن إلّا رائحة الدم والقتل والبارود. نقط تفتيش وهميّة تُهيمن على الشوارع وحاجة مُلحّة على مدار اليوم تُجبرها على رفع هُويّتها وشرح تفاصيل تنقّلاتها وأسباب توجّهها من حيٍّ إلى آخر داخل وطنها وداخل عاصمتها.

كانت تتحدّث بمرارةِ قلبِ أمّ يستعرُ على فقدان زوجها وابنها وبيتها ووطنها.

– إلّلي خلّاني أفكّر أطلع من العراق هو حادث الكنيسة.

قالت أمّ كَوركَيس.

– كنيسة سيّدة النجاة؟

ردّت أمّ فاطمة وكأنّها صُدِمَت.

– إي، كنيسة سيّدة النجاة.

– سودة عليّة! چنتي هناك؟ والله حبيبتي إنتو المسيح ناس فقرة وبحالكم ومالكم دخّل بحّدّ، آني أحچيلچ ياهة بصراحة.

– تسلمين. آني عشت عمري كلّة بذيچ المنطقة ويّة ناسها. بيتي چان بنفس شارع الكنيسة.

2

صنع إبليس الشرّ في اليوم الأوّل والحقد في اليوم الثاني والطائفيّة في اليوم الثالث والإرهاب في اليوم الرابع والغدر في اليوم الخامس والحرب في اليوم السادس، وفي اليوم السابع، قرّر الاستمتاع بمشهد مجزرة كنيسة سيّدة النجاة.

الكهنة على المذبح والجموع تُذبح على مرأى من جميع أطهار السماء وشياطين الهالويين.

لم يقفوا في صفٍّ مُنظّم لتناول القربان المقدّس في ذلك الأحد المسيحيّ البغداديّ، بل تدافع المصلّون كالمجانين للفوزِ بكهنوت الحياة ليومٍ آخر أو أكثر.

جنون الجهل في الخارج تسلّق كتبهم

المقدّسة واقتحم نوافذ الكنيسة ومداخلها وكتم أنفاس الجوقة التي توقّف ترتيلها للتوّ وإن استمرّ صداها في النزوح من حناجرهم والصدح ملء المكان.

كانت ممتلئةً، لا تتّسع لمصلّين آخرين، لكنّها قهرًا فتحت أبوابها لحَفنة متطرّفين قرّروا اغتيال كنيسة. لم يشبعوا من وليمة دمويّة الصراعات الأهليّة بين الشيعة والسنّة في العراق بعد عام 2006. أرادوا توسيع الحلبة بمنافسٍ آخر ليُضيّقوا الخِناق على الحياة.

لم يُحدّد وقت الجولة. تُرك الأمر لحَكمٍ يعلنُ دومًا استنكاره لأيّ لكمةٍ نظيفة.

انفجارٌ فآخر في الخارج لانقطاع التيّار الكهربائيّ في الداخل حتّى قَفَزَت الهاليلويا من كتبهم خوفًا من أن تُنحر غدرًا في الظلام الملوّث بالهلع.

كان عيد جميع القدّيسين، وهو تقليد مسيحيّ سنويّ، وكان المكان يضجّ برائحة البَخور قبل أن تخنقه رائحة البارود. الأدعية تتمايل في أفواه المؤمنين. فُتِحَ باب السماء لطلباتهم، تمامًا كباب الكنيسة الذي نسي أن يلفّ بعض الأسلاك الشائكة على خصره حتّى لا ترقص قنابل الإرهاب على وقع ألحان المصلّين.

اقتلهم في دار العبادة. هكذا يصبح المشهد مشوّقًا وتراجيديًّا أكثر. فيمتزج دم الكفرة مع نبيذ الكفرة في كنيسة الكفرة وأمام رجال دينهم الكفّار في هذه العاصمة الكافرة في بلدٍ كافر تحتضنه قارّة كافرة وكوكب كافر يقبع في مجرّة كافرة تعيش على أشعّة شمس سيّئة الصيت، وبالطبع كافرة.

في تلك اللحظات لا تميّز الإلحاد عن الإيمان، الظلم عن العدالة الإلهيّة، الرصاصة عن القنبلة. كلّها تقعصك وتقودك إلى عالمٍ لا تعرفه، بعيدًا عن سخافات هذه الحياة المختلّة وطيشها وعبثيّتها.

رَسَمَت أمّ گورگيس علامة الصليب على صدرها لعلّها تقيها شرّ أثرياء الدم. بعضهم التزم الصمت ودخل صومعةً روحانيّة لم يغادرها على قدميه. نساء يصرخن وأطفال تائهون وسط الضجيج ورجال فقدوا قدرتهم على التنصّل من رعبهم وكهنة أسلموا مصيرهم للّه.

– دهرجَ بعضهم إلى السكرستيّة ليختبئوا بين أقمشةٍ لفّت جثثهم لاحقًا. وهُرِع آخرون للاختباء في غرفة المعموديّة القريبة من مدخل الكنيسة. واستسلم آخرون لقضاءٍ يجهلونه. تصلّبوا في

قاعة الكنيسة قبالة المذبح.
تروي لأمّ فاطمة ما حصل في الداخل.
– شنو هاية السنكرستيّة؟
– سكرستيّة. مكانٌ يستعمله الكهنة لتغيير ثيابهم.
أركان الجريمة واضحة وكاملة، إرهابيون يقتحمون الكنيسة بمصابيحَ فوق رؤوسهم تغتصب عتمة المكان وتسترهب المصلّين. يُلبسون بنادقهم واقيًا ذكريًا وينكحون بها عُبُوّات ناسفة تنهش تضرّعات العزّل. قنابلُ تروّع الأعين وينكحُ بعضها بعضًا وتمارس زنا المحارم في جيوبهم. لحى هربت من جدران جهنّم واستوطنَت أقنعتهم. كلّ شيء كان ينذر بكارثةٍ ستقع، لكنّها لن تسقط عن الأذهان.
«إلى بئس المصير يا كافر»، هكذا قال لأحد الكهنة قبل أن ينحره بالقربِ من إنجيلٍ مقدّس كانت تُتلى آياته على المصلّين. سالت دماء الكاهن على سجّادة حمراء ربطت مدخل الكنيسة بنهايتها، فأصبح العراق بلاد الثلاثة روافد بدلًا من بلاد الرافدين. تَحَوَّلَت تراتيل الجوقة إلى صلواتٍ خافتة يتمتمون بها خوفًا من أن تطال «أبانا الذي في السموات» قنبلة، وخوفًا على

«السلام المريميّ» من رصاصة احتَقَرَت نفسها لوجودها في رحم بنادق داعرة. بعض الصلوات لا عَلاقة لها بالإيمان.

نؤمنُ بإلهٍ واحد، آب ضابط الكل، هي فقط عصارة خوفهم.

استتبّ الدم والخوف والهلع أرجاءَ المكان وتَمَّت العمليّة بنجاح. غمز إبليس لرفاقه وأومض لهم بالعودة إلى قواعدهم.

«احتجاز مجموعة من المصلّين في كنيسة سيّدة النجاة في مِنطقة الكرّادة الشرقيّة في وسط العاصمة بغداد عشيّة قدّاس عيد جميع القدّيسين، والقوى الأمنيّة وقوّات مكافحة الإرهاب تحاصر المكان وتحاول إخراج الرهائن مع سماع دويّ انفجارات في الداخل»، زَفَّت القنوات الإخباريّة التي تبحث دومًا عن ثرثرة الأرواح نبأ فاجعة جديدة تمتصّ دم العراق. تقنينُ أرواح ورخصٌ فاحشٌ في جوهر البقاء.

أسماءٌ مُكرّرة...

العراق، بغداد، انفجار، رهينة، قتل، قوّات أمنيّة. لم يختلف المشهد كثيرًا عن تفجير المساجد والمراقد والأماكن الأثريّة والثقافيّة والفنّيّة والجامعات. في الأمس القريب تفجير مرقد

الإمامين علي الهادي والحسن العسكريّ في سامرّاء، وبعدها تفجير الجامعة المستنصريّة في بغداد لتحصد مناجلهم الجبانة أرواح الطلبة من بين سطور الكتب والحياة. وغدًا هذا الجامع وتلك الكنيسة وهذه الحُسينيّة.

لطيفة حُجج أرذال الغرب المُختَلَقة لتستأكل الدول وتغتصبها ومن ثمّ تلحس حيض حضاراتها. أرادوا، مثلًا، انتشال العراق من الظلم والعبوديّة، كأنّهم يفرضون عليك قبول فكرة ممارستهم الجنس مع زوجتك لأنّك عقيم وغير قادر على إسعادها. عليك الرضوخ لأنّ في ذلك حماية لعائلتك من الهلاك. فاحتلّوا، مثلًا، بغداد واقتسموها ولم يسرقوا الجمل بما حمل، لا فائدة من أن تسرق الجمل إن كنت سرقت الصحراء برمالها وواحاتها.

حقنوهم بجرعاتٍ مكثّفة من روعٍ استولى عليهم واستفحل في يوميّاتهم لسنوات. حاصرهم وطارد عويلهم. اغتصب دموعهم، كفّ آهات تكبيرهم وخنق قرع أجراس كنائسَ ما عاد لرهبانها أناجيل. شقّوا صدورهم وزرعوا فيها خميرة الخشية، أوقَدوا النار تحتها وانتظروا نضوجًا غذّاهم لسنوات. فرشوا لهم السجاجيد

المرقّعة بالدماء فحلّق الضعفاء فوقها كأفواجِ نحلٍ متدفّقة نحو خلايا المآتم. ركعوا عند أكاليل نصوبها بخشوع الملحد الذي يقارف المعصية عن إيمان. تمسح الحرب جبينه لينال مَيرون الموت.

أعرفُ تمامًا قِصّة تلك السيّدة.

يوم الحادث هُرِعتُ لأهاتف صديقي العراقيّ الذي يرتاد كنيسة سيّدة النجاة التي زرتها وإيّاه غير مَرّة في أثناء وجودي في بغداد قبل عامين من الفاجعة.

«اليوم عُلِّقوا على خشبة وقُتِلوا...»

لكنّهم لن يقوموا في اليوم الثالث كما جاء في الكتب.

«الحق ما بيموت يا مدام، الحق ما بيموت»، تعزّي امرأة لبنانيّة كُرُوب أختها في الحرب الأهليّة والطائفيّة وقد ظهر في ملامحها التأثّر.

«وكيف له أن يموت وهو لم يُبصر النور بعد؟»، أجاب أحدهم ولم يُفصح عن صوته.

القِصص نفسها والوجوه مختلفة. أمس لبنان واليوم العراق. أمس حرب أهليّة وأحزاب مسلّحة وحروب شوارع وخطف ودسائس وقتل وفرز بين الأعراق وزمر الدم، شيعيّ، سنّيّ، مارونيّ،

واليوم ميليشيات وعصابات. والضحيّة لا تتغيّر والجلّاد لا يُسبل ضميره.

دَرَجَت امرأة من الخلف وجَلَسَت على مقعدٍ آزى أمّ فاطمة وأمّ گورگيس. ابتَسَمَت لهما بمودّة ثمّ أخرَجَت من حقيبة يدها مجموعة من الكتيّبات الصغيرة.

«الله لا يسمح بالألم. هذا كلّه من فِعل الشيطان إبليس. نحن نعيش في الأيّام الأخيرة من هذا العالم الشرّير وقريبًا سيأتي الملكوت لنحيا بسلام. لكن قبل ذلك علينا أن نتمسّك بالمبادئ الإلهيّة لأنّها ستساعدنا على عبور (هرمجدّون) في أواخر هذه الأيّام العصيبة. ثمّة العديد من التفاصيل في هذه المطبوعات المجّانية المفيدة جدًّا، هذه مجلّة برج المراقبة وهذا...»

«هذه المرأة من شهود يهوه»، أخبرني الرجل الجالس إلى جانبي بصوتٍ خفيض.

«يتقوّل الناس العديد من القِصص عليهم ويصفونهم باليهود والصهاينة. أذكر أنّ جدّتي كانت تعرف واحدة منهم. عندما كانت تزورنا في مواسم الأعياد كانت جدّتي توصيني وأخي بعدم معايدتها لأنّهم جماعة لا تمارس الشعائر

المسيحيّة ولا تحتفل بعيد الميلاد وعيد القيامة وأعياد الميلاد الشخصيّة أيضًا».

سَمِعَت المرأة كلامي مع الرجل فالتفتت صوبي وابتَسَمَت بلطفٍ وأعرَبَت عن سعادتها بحديثي.

لا أحبُّ الجماعات الدينيّة وأرتمضُ منها لسببٍ واحد. كلّ جماعة تعتقد أنّها الأفضل بين الأخريات والأقرب إلى الله من غيرها وتمتلك مفاتيح الجنّة ولوائح المقبولين فيها، وكلّ الطوائف والأديان الأخرى على خطأ، لذلك لن أنتمي يومًا إلى أيّ تجمّع ديني.

زياراتي للكنيسة كانت قليلة جدًّا، ما أثار أهل حفائظ الدين من العائلة والأقرباء، وبالذات والدتي. الشعائر الدينيّة بالنسبةِ إليها من المُقدّسات، فهي فرص ذهبيّة للتخفّي بملابسها الثمينة والتبرّع بالأزهار الهولنديّة إلى الكنيسة لوضعها على قبر المسيح في صلاة الجمعة العظيمة، شريطة لصق اسمها على لائحة الشرف الكنسيّ في صالة الاستقبال.

يومها تكون راكعة قبالة القبر لتنمّق مشهد خشوعها أمام زميلاتها في الإيمان الباذخ.

لم تسألني الشعوب «الكافرة» في بريطانيا عن

ديانتي أو عن مواقفي السياسيّة. هذه الأسئلة هي تخصّص الكائنات الشرق أوسطيّة «المؤمنة». فميلك السياسيّ أو الدينيّ قد يكون فيصل عَلاقتك بهم حسب الدرجة الفهرنهايتيّة لتعصّبهم وتقبّلهم لجرائم اختلاف الآخر.

بعد ساعة ونصف وصلنا إلى حريصا. ترجّل بعضنا من الحافلة باتّجاه التلفريك لنصعد إلى المزار في أعلى الجبل.

يأتي الناس إلى مِنطقة جونية لسببين لا ثالث لهما. للسكر والعربدة في البارات ليلًا، وللتضرّع قبالة تمثال حريصا صباحًا.

أتت أمّ فاطمة للصلاة والدعاء. تودّ أن تطلب من مريم العذراء بعض البركات ليتحرّك ملفّها القابع منذ سنوات فوق رفوف منظّمة اللاجئين التابعة للأمم المتّحدة. لعلّها تتحوّل من لاجئة على ورق إلى لاجئة فعليّة في دولة اغتراب – أو اختراب – أجنبيّة.

تَسَلَّقَت أمّ كَوركَيس الجبل لتطلب بركات مريم العذراء لعلّهم يوافقون على ملفٍّ لم تقدّمه بعد في الأمم المتّحدة، ولعلّها تتحوّل من طالبة لجوء إلى لاجئة مثل أمّ فاطمة، أختها في الجنسيّة.

ما لا تعرفه بعد هو أنّها بالتأكيد سوف تأتي بعد

أربع سنوات كما تفعل أمّ فاطمة الآن لتطلب بركات مريم العذراء مرّةً أخرى ليتحرّك ملفها القابع فوق رفوف منظّمة اللاجئين لعلّها تتحوّل من لاجئة على ورق إلى لاجئة فعليّة.

يومها ستكون أمّ فاطمة قد حصلت على شرف اللجوء وتقضي معظم وقتها في دور العبادة الأجنبيّة طالبةً بركات مريم العذراء وسائر الأنبياء ليتحسّن الوضع الأمنيّ في بلدها وتعود إليه سالمة غانمة بعد رحلة ماجلّانيّة قصيرة خاضتها فوق رفوف الهجرة القسريّة.

شُجيرات من حديد

(عصفور الطباشير)

تأخّر كلّ شيء وتأخّر الجميع،
دقّة المواعيد خزعبلات...
مهما أسرعنا فسنتأخّر...
وليس بالضرورةِ أن نصل،
فأجمل المواعيد لا تُبصر اللقاء.

1

«عابرون قساة بلا شكّ، خافوا من ارتفاع السقف فانتقموا من الأرض.»
أحمد محسن (وارسو قبل قليل)

لا تقل وداعًا، إن لم تكن صاحب قرار الغياب...

هاتفني جيوفاني، صديقي الأقرب، وأخطرني أنّه آتٍ إلى بيروت يوم الخميس المقبل وطلب منّي ملاقاته في المطار. كان قد هاجر إلى دبي قبل سنوات وكنتُ أزوره بين الفينةِ والأخرى.

ما كنتُ أصل إلّا ريثما أغادر. لم أحبّ تلك المدينة البتّة. اعتدتُ النفور من ألوانها الاصطناعيّة ونسائمها المُعلّبة الموصَدة المداخل التي ما انفكّت تُكبّل عظام قفصي الصدريّ كلّما حطّ جسدي هناك، لأعود هاربًا إلى لندن أو

بيروت سيرًا على الأبراج.
تفاءلتُ بمكالمةٍ قد ينعقِد بها أملٌ. انشرح صدري لسماع أخبار زيارته. كانت فرحتي لا تجاريها فرحة، فوجود جيوفاني في حياتي يعني أنّ العديد ممّا يُثقل يوميّاتي سيضمحلّ بالتدريج. انتظرته بصبرٍ نافد لصيّادٍ يبحث عن سمكةٍ في البحرِ الميّت.
فصٌّ جمٌّ من دوّامة القلق التي تؤرّق صحوي ونومي سينحسر وسيختفي رويدًا رويدًا. اعتدتُ أن أثِق برجاحةِ عقلهِ وحصافتهِ في الحياة. سأدلو له بكلّ ما يعتريني من ضياع وسأفضي إليه بحَيرتي.
مَرَّت الأيام بسرعة. شعرتُ كأنّني كالمستجير من الرمضاء بالنارِ عندما قابلتُ شبحِ جيوفاني العائد إلى بيروت بفلسفةٍ جديدة. تَبَخَّرَت آمالي العريضة به بعدما اشتدّ وتد انكساره وعاد بهيئةِ إنسانٍ آخر لا أعرفه. كان مشتّتًا، يفكّر في التي أَحَبّ وألقت به من فوق برجها العالي وهشّمته. انتظرها لتلتقطه لكنّها اختارت التشبّث بقشّةِ ملايين صديقهما هاني على البقاء مع جيوفاني، المجهول المستقبل.
سامته العذاب بقرارٍ إمبرياليّ وغير مسؤول.

آشجته وتركت خلفها العديد من الحطام يولد يوميًّا داخله لتصبح ذكراها أشدّ قساوة وصلابة وشراسة.

قرعتُ الباب لكنّه لم يشعر بنبضه. تنحّى من مكانهِ ووقف قبالتي بصمتٍ استغنيتُ به عن أسئلتي. زحف قليلًا وغار مجدّدًا في أريكتهِ المنزوية قرب النافذة البيضاء المطلّة على شارع الجمّيزة المزدحم حيث يسكن ويُدفن يوميًّا.

ساقه اليمنى على ظهرِ أريكةٍ جلديّة، واليسرى فوق كومةِ كتبٍ عتيقة وممزّقة قرأها عشرات المرّات وفي كلِّ مرّةٍ يسأل عن اسم مؤلّفها الأبله ليكتشف أنّه مَن خطّ تلك الحماقات التي لم يضاجعها إلّا سقمه وذبول حياته.

الصور واللوحات تتسكّع في شقّته الصغيرة المملوءة برائحة نفوره من كلّ شيء. لم يكن رسّامًا ولا مصوّرًا فوتوغرافيًّا، وتجميع الخردة ليس في مصفوفة هواياته السالبة الشحنة. يعشق السينما بكلِّ تفاصيلها وتفاصيله. هي حياةٌ أخرى بالنسبةِ إلَيه. كونٌ منفصلٌ عن الواقع. يندسّ دومًا في قاعاتها، يستلقي على واقعه ولا ينام.

على طاولةٍ بيضاء استدارت قِطعة قماش

صغيرة بلونٍ أغمق وُضِعَت فوقها صورة داخل إطارٍ خشبيّ يشبه لون الطاولة. سألته لاحقًا عن أبطالها. لم تكن لوالديه. وجدها في مجلّةٍ وراقه فستان المرأة فقرّر الاحتفاظ بها. بالقرب من الصورة لمحتُ كتابًا عن هنري مكارتي. استغربتهُ، فلم آلف جيوفاني يقرأ هذه النوعيّة من الكتب.

استقامت على الحائط الملاصق للطاولة مجموعة من الصور غير الملوّنة. تعود إلى الستينيّات أو ربما الخمسينيّات. صورٌ لجدّيه ووالديه وثُلّةِ أشخاصٍ لا يعرفهم. عثر عليها في صندوق مقتنيات جدّته وعلّقها لسدّ بعض الحُفر في الحائط. صور كارلا غائبة عن الجدران فأدركتُ أنّه لم يُشفَ منها ولم يسْلُ عن التفكير فيها.

تَوَغَّلَت خيوط الشمس من ستارة الدانتيل البيضاء إلى وجههِ الشاحب حزنًا. أوراقه المبعثرة تستلقي إلى جانبه. حاكَ بوائجَ كثيرة مع الورق. لا يحاور سواه، فليس للورق عيون تشمتُ به وفم يحاسبه. الأوراق تنصتُ جيّدًا ولا تفضح.

نظرتُ إلى تلك الأوراق فوجدتهُ قد رسم فوقها بعض الخربشات غير المفهومة. خيّم السواد على غالبيّتها ففهمتُ أنّها القهوة.

لطالما استباحت القهوة أوراقه وسريره وأحيانًا جسده. تركها تجولُ في شقّته لتذكّره بالفقدان. لا يعدّها ليحتسيها بل لتندلق على أوجاعهِ ودموعهِ وتطفو فوق حاضره، وكأنّه يتشفّى من يوميّاته.

كلّنا ننتقم من أنفسنا، بطريقةٍ أو بأُخرى، بوعي أو بلا وعي. في الانتقام من الذات لذّة أخفقناَ في الحصول عليها من الآخرين.

حتّى بعدما أصبَحَت كارلا في أعناقِ سرير رجلٍ آخر، لا يزال عطرها يزاحم طيف يوميّاته ويعتصر أشلاء كيانه ويقدّمه للحياة ككائنٍ ضعيف يعجز عن نسيان امرأة مَطليّة بالقسوة. لَملَمَت ظلّها وعطرها ورَحَلَت عنه بلا موعد لتتركه أسير عطرها، فاقدًا ظلّه. صَنَعَت منه جسدًا صيفيًّا يهرب من برد الشتاء ويختبئ في جوف فصولٍ اعتاد دوران الأرض تجاهلها.

تجرّأتُ على الصمت في حضرة اندماجه مع صخب حزنه المعلّق على جدران شقّته. رحّب بصمتي وطلب منازلتي.

لكنّني لست بجريرٍ...

وهو لم يكن الفرزدق.

2

كان الواقع مخالفًا تمامًا لتوقّعاتي.

جيوفاني الآن يعاني الأمرّين بقلبٍ مُنكسر يتلهّى بأمرٍ من الأحزان المتسلّقة بأجنحةِ حاضره المُحتضر. يحاول دفن خيباته فتغافله وتندسّ بين أفراحهِ. تحتلّه وتتوعّده بحروبٍ ضارية لن تنتهي.

ركبَ جيوفاني قطار الانهزام السريع وغرّد خارج السرب ليصل إلى بيروت بعد بِعادهما الطويل حاملًا معه العديد من القِصص المُتّكئة على كتف امرأة لا تراه.

ركبَ قطار المشقّات عينه قبل خمس سنوات عندما غادر بيروت بعدما ذَرَعَ كلّ السُبل بحثًا عن

مأوَى لشهادتهِ الجامعيّة المُشرّدة، فأغلَقَت آلهة الفرص جميع الأبواب في وجههِ ليُفتح له باب انتعال الهجرة. وها هو الآن يطلب اللجوء إلى حضن بيروت هربًا من خيانة دبي له.

بيروت مدينةٌ وفيّة. نخونها يوميًّا ثم نرتمي بين أحضانها من جديد. زوجة الأب لن تحبّك كما تفعل والدتك. والدتك تحفّك وترفّك بعد كلِّ صفعة وكلِّ جلدة وكلِّ خيبة. احتضنته بيروت الأمّ من جديد، لم تخلّ بوعدها. طَيَّبَت خاطره المكسور رغم خيانته لها.

– يا رجل، في حدا بيترك دبي ويرجع على لبنان؟ شو هالغبا!

سألتهُ باستغرابٍ وحَيرة، ثمّ شعرتُ بسخافتي والتناقض البيّن في سلوكي كمن يرمي أحدهم بدائه وينسلّ. رمقني جيوفاني بنظرةٍ قالت لي: «علامَ تتفلسف؟ من غادر لندن بعد أن قضى فيها سحابة عمره؟ أتعرف في هذه الحياة أغبياءَ يقاسمونني العلّة؟».

– المهمّ، الحمد الله على سلامتك وان شاء الله تنبسط ببيروت. قدّيه باقي عنّا؟

– مش راجع.

– ليه؟ شو صار؟ شحطوك من شغلك؟ الله لا

يعطيّون العافية شو أرزاق الناس لعبة! ما بيفكروا بمصير العالم ومستقبل ولادن!

– ما حدا شحطني، أنا شحطت حالي.

بعثر حياته لأجل كارلا التي كان من المقرّر أن يخطبها بعد عَلاقةِ حبٍّ دامت أربع سنوات. قدّم لها جناحيه لتحلّق بهما عندما كانت موظّفة بسيطة في مطار دبي. وحين تَسَلَّقَت السماء، تَسَلَّحَت الغيوم وشاحًا وتَزَوَّجَت رجلًا آخر.

لا أجيد الخوض في أتراح من أحبّ، ولم أعرف ما هي الطريقة الفضلى بين الأخريات للحديثِ إليه وفتح صرّة أحاجيه عندما رأيته رأى العِيان مُثقلًا بكلِّ تلك الهموم.

– لا أعلَم سبب انكباب الناس على العشق رغم قساوته. لِمَ لا تدّخر أوجاعك؟ عليك أن تعيش الحزن إلى أقصاه وتستثمر كلّ لحظات التعاسة في حياتك، تمامًا كما تفعل مع السعادة. ابحث عن التعاسة فهي بك وعليك، إن لم تجدها فلن تستلذّ بفرحك. لكن تذكّر أنّ الحزن هو مقياسك لقيمةِ الأشياء، فلا تولّده لفراغٍ يابس. فكّر جيّدًا قبل منح أحدهم شرف الحزن عليه لأنّه قد لا يستحقّ هذه القيمة.

مشكلتك الأساسيّة هي تحجيم الأشخاص والأمور. تقع دائمًا في هذه الفِخاخ إزاء من تُحبّ، وربّما من تكره أيضًا.

بادرتُ إلى الحديثِ إليه بعد انتظاري المُضني لتشقّ الكلمات طريقها عبر ملامحه المُجهدة.

– داخل كلّ منّا زاوية تبكي بصمت، وربّما تبكي علنًا. كلّنا نبكي، فلا رقيب على البكاء. ليس المهمّ من كان سببًا أدمعك، الأهمّ من سيكون سببًا في تجفيف تلك الدموع.

تابعتُ حديثي لعلّي أستفزّ سكوته، لكنّه لم يحر كلمةً.

هكذا اعتدتُه. يدخل دومًا صومعة الكرب هذه. يضربُ أخماسًا لأسداس، يرفض الحديث، يرفض البكاء، يرفض ذاته، ويرفض الحياة دونها.

قرّرتُ استصحابه للسهر في واحدةٍ من حانات شارع الجمّيزة في بيروت، لعلّي أروّح عن نفسهِ ولعلّه يتطهّر منها ويقتلع أشواكها السامّة المستطرقة على جسدهِ والمستقرّة في أعماقهِ وينفض ذكراها المنحوتة فوق عظامٍ مدفونة في روحهِ.

– هناك، في ذلك الشارع وسواه تبدأ يوميًّا

العديد من الروايات وتنتهي آخريات. يلتقون كالأحبّاء ويفترقون كالغرباء. البدايات عرجاء ولعوب، تتنقّب بالدهاء. على عكس النهايات، فهي صادقة، تتبرّج بالوضوح. لم يتغيّر هذا الشارع كثيرًا. تَغَيَّرَت الوجوه فقط.

قال بابتسامةٍ صفراء وهو يواصل رحلته في أعماق الشارع. يخبرني عن ذكرياته قرب أماكنَ تعثّرنا بها في أثناء تطوافنا البطيء فوق أرصفةٍ تصرخ ولا يسمعها أحد.

– أحبُّ وفاء الجدران للأماكن. هل صادفتَ جدارًا يترك منزله؟ البشر يرحلون، الجدران لا تفعل. تنتظرهم حتّى وإن قَطَنَت عبثيّة إيابهم. تتصدّع في غيابهم وتتآكل بالشوق، لتبدأ شروخ الحنين وبثوره بالظهورِ على معالمها المُسنّة. يتيمة جدران منزلي في دبي. تنتظرني الآن لأفتح ستائرها من جديد فتنعم ببعض الضوء. لكنّها تداعت، من آواني أصبح جحر أفعى تنهشني وتنفث سمّها الزعاف في جسدي الذي ما عرف ترياقًا. لن أثبت أمامها. الرحيل هو الحلّ الأفضل في الوقت الراهن.

– هل أنت واثقٌ بقرارك؟ هل فعلًا تريد البقاء في بيروت بعد سنواتٍ عديدة أمضيتها في دبي؟

– كلّا يا صديقي. لستُ متأكّدًا من شيء. فقدتُ ثقتي بكلِّ شيءٍ في هذا العالم الغريب. لا يوجد ما يستوجب أن تمنّ عليه بالثقة. عاجلًا أو آجلًا سيخونك. حتّى ذاتك تخونك حين تشعر بخطرك المُحدق عليها.

جلسنا في مقهًى اخترناه عشوائيًّا وبقينا حتّى منتصف الليل نتجاذب أطراف المواضيع الحياتيّة الروتينيّة وبعض المقاربات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة بين دبي ولندن وبيروت. لم أشعر أنّ الظروف مؤاتية لأستنطقه تفاصيلَ أخرى عن قرارِ عودته إلى بيروت.

بعد تخرّجه في كلّيّة الهندسة بعام، حصل على عقدِ عملٍ في دبي. لم يفكّر كثيرًا في القرار. ربّما لم يفكّر فيه قطّ. تعزّبَ لسنواتٍ في بيروت ثمّ دخل قفصَ دبي الذهبي. وضعَ الهجرة نُصبِ عينيه، إذ كانت سراجه الوحيد بعدما تَقَطَّعَت به الأسباب واكتسحه اليأس. أراد مغادرة لبنان والعمل في أيِّ بلدٍ خليجيّ سعيًا وراء المال وانتقامًا من شَظَف العيش في بيروت.

كان ساخطًا على حياتهِ، مهووسًا بالترف لَعّانًا وناقمًا على كلِّ الأثرياء متّهمًا إيّاهم بسرقة أموال الفقراء بجِرار الجوع والعبوديّة. لم تكن

بيروت بالنسبة إليه إلّا مدينة جاحدة لا تمنّ عليه بوظيفةٍ تليق وشهادته الجامعيّة وربطة عنقها.

غادر جيوفاني لبنان مُنكّسًا بالفقر المدقع وعاد إليه هاربًا من إخفاقه في الفوز بقلب من أحَب. خان بيروت فخانته كارلا فعاد وخان دبي. أسرّ الندامة في حقائبه وعاد، اعتذر إلى بيروت الأمّ من فعلتهِ، ضمّدَ رأسها بقبلةٍ وطلب الصفح والغفران.

بيروت درويشة وبتسامح، هكذا يقولون.

«هل قرأت عن حرب الوردتين؟ تلك الحرب الأهليّة التي دامت ردحًا من الزمن بين العائلتين الحاكمتين في إنجلترا؟ كنت أظنّ أنّ الحروب الأهليّة من تخصّص العالم الثالث فقط، ثمّ تبيّن العكس. فهناك يتقارعون أيضًا على الكراسي مثلنا تمامًا. أنتم أيّها الإنجليز تتناجدون مثل عشائر الضاد بفارقٍ بسيط وهو إضافة الطابع الرومانسي على أسماء حروبكم. حرب الوردتين، الحمراء والبيضاء، اسمٌ جميل يخفّف رهج الحالة المتأجّجة. نحن الشرقيّين نكتفي بلحس أحذية رجال السياسة التي تَرِبَت بالدماء، وتسريح لحى الفريق الآخر المعتكف في منابر الجنّة وصوامعها»، قال.

غادرنا المكان بعد نصفِ ساعة بعد أن أفضى حديثنا المستمرّ عن حرب الوردتين إلى تسلّل الملل إلى كلينا. بَقِيَت هزيمته تمارس الجنس مع وردتين في حياته، صديقه الأقرب وحبيبته، لينجب منهما وجعًا شرعيًّا يواري به ضعفه وانكساره ويدفنه في حديقة.

ملأت الوحدة إناء حياته. جالسَ خيانتهما المُلتصقة بجرحهِ كالغِراء، ثمّ رشف حزنه، لعلّه يسكر من جديد. شعرَ بالدوارِ وخَلَدَ إلى الألم.

من حال بينه وبين نسيانها؟

يصرّ طيفها على اقتحام حياته والتشبّث بمخيّلتهِ حتّى بات كائنًا يعيش رهن عبثيّة صخرة مزاجيّة تنغمس في نهر حياتها ويغرق هو في محيط تفاصيلها الضائعة. كانت مبيته ومأكله ومشربه وكسوته، باتت ضياعه وقحطه وجفافه وبرده.

في طريقنا إلى المنزل عاتبها بصوتٍ شجيّ. لم يكن يعي ما يقول. فاض أنينه وتحدّث بانكساراته. تحوّل إلى حطامٍ مرعب يقصف ذاته بشراسة. لم تفح رائحة الويسكي منه، بل رائحة حنينه إليها. لم تؤمن يومًا بأحلامهِ، فالحلم محيص الجبناء، وهي أضعف من الاعتراف بِجُبنها.

يخاف أن يعود إلى ذاتهِ ولا يجدها، يخاف أن يخاف وليست معه. فماذا به يفعل لكي يقترب من رحيلها ويقنعه بالعودة؟ ليقنعه أنّ السراب أضنّهُ، أتعب طريقه واستنزفه وأقحل جسده وأقعده؟

أخيرًا، وبعد بوحهِ الرماديّ همد صوته. نظرتُ إليه فوجدته غارقًا في دياجي أحزانٍ ضفّرها الزمن فوق فروة رأسه وقد وَهَنَت ملامحه حدّ الضياع.

غطَّ في النوم وفي أذُنيه جرحٌ يعزف ولا ينجبر.

شُجيرات من حديد

(مدينة لا تعرفني... وأفعل)

هم لا ينتزعون منك أرضك فحسب،
بل يسلخون عنك ذكرياتك وماضيك...
لتجد نفسك بقايا لشجرةٍ صفراء وسط الخريف.
فاتها الصيف وتأخّر ربيعها،
ستواجه الشتاء لا محالة.

1

«لماذا أنت مهمومٌ بدون همّ؟ حزين بلا حزن؟ تفكّر وليس
في جبينك مشكلة؟ وتتألّم وكلّ ما فيك سليمٌ معافى؟»
محمد حسن علوان (موت صغير)

بيروت، 28 آب، 2016

كنت هناك... أسحق الماضي، أتصفّح الحاضر وأتأمّل المستقبل. أطالع الظلّ المُعلّق فوق حائطٍ عتيق، للذكرى رائحة تخنق المارّة. أجوب بينهم وحيدًا، أسامر مرورهم، وأتناسى وجودهم. أهامس ليلتي الأخيرة معه.. أتذكّر تلك الليلة... بل أتذكّره. كان ليلًا لم يسهر له أحد، وصباحًا لم يشرق...

كان الوطن.

يستوضحني الجميع...

حضرتك لبناني؟ سيادتك عربي؟ جنابك أرمني؟ أكيد مسيحي، لا؟ مش معقول زَراق هالعيون يكون عربي! دخلكن في عنّا بالشرق هيك شقار؟

كانت الأشياء تكبر من حولي وأنا أصغر بين أسئلتهم في مدينةٍ غريبة بدأ روال مرضها المزمن السيل على جسدها المُحجّب تارةً، والمفروش للمارّة تارةً أخرى. لا أبتسم ولا أنوح، اضطَرَبَت مشاعري فأجليتها ومضيت.

لا أعاني من الوجع، ولا الفرح. أعاني من الملل وفقدان الأمل والخيبة. أجندة يوميّاتي خالية من المواعيد المُهمّة غير القابلة للتأجيل والعصافير المولولة أمام منزلي تُقلق نومي وترفع من وتيرةِ توتّرٍ مُقرفِص في عقلي.

والدتي تتّهمني بالغباء لأنّني تركتُ لندن ورسّختُ قدميّ بوتدِ بيروت الذائب في القضايا الخاسرة منذ أدهر وترجمني يوميًّا بأحجارٍ قاسية لم تعد تؤلمني.

حسنًا يا أمّي... سأغادر بيروت.

على خشبة مسرح «مونو» يمثّلون للمقاعد مسرحيّةً فاشلة ببطاقاتِ دخولٍ باهظة الثمن. وعلى بعد أمتار ثمّة مسرحيّة أخرى. صفائح

نفايات تنتظر عمّال «سوكلين» لتخلّصها من لعنة المارّة. أكياس القمامة تتكاتف في الأزمات لتلقّننا دروسًا في التلاحم.

في المسرح لا يحقّ لك الاعتراض على الأحداث ومواقيتها وشخوصها. لا يحقّ لك الاعتراض على مدّة العرض ومكانه. لا خيار لك إلّا الضحك أو البكاء، أو كلاهما معًا. وإن لم يعجبك العرض، فغادر... ثمّة العديد من المسارح في دولٍ أخرى.

بادت الشمس وسَلَّمَت ناصية السماء إلى القمر. خَلَدَت إلى النومِ قبل مجيء روّاد العربدة لتستقبل صباحها بنشاطٍ تنجز فيه مَهامّها اليوميّة بنخر رأس صاحب الكشك العجوز.

خال والدتي، حبيسِ الحرب، يتذكّر رفاقه ولا يشعل سيجارته كما فَعَلَت والدتي عندما تَعَثَّرَت بظلّ والدي ذات مساء. عمّتي تتمرّغ بالوحدة، تتصارع ونفسها وتنتظر شيئًا لا تعرفه لكنّها تخافه. تمامًا كما يخاف جيوفاني ذكرى امرأة لا تتوقّف عن نهشه، وكما أخاف أنا رائحة حساء جدّتي المُرفرفة فوق منزلنا في تنّورين. نحن نخاف من نحبّ أكثر من خوفنا من نكره. للحب قواعد غريبة نكتشفها كلّما أحببنا أكثر.

المرأة على الكورنيش لا تزال تبحث عن زوجها بين أكوامِ جثثٍ حيّة تركض صباحًا على ساحل بيروت والبصّارة ترمقها من بعيد منتظرةً اقترابها منها ولكن هذه المرّة بنقودٍ لا تملكها أمّ طفلٍ لم يفقد الأمل بسرقةِ تفّاحة أخرى من عربةِ عجوزٍ آخر أمام مبنى آخر في ظلّ إذلالٍ آخر. صاحب الكشك الصغير يماثل الطفل في العناد، فهو لم يملّ من لعن حرارة الشمس لعلّها تشفق وتنكشح لتشرق على من يموت قهرًا مرتجفًا.

العجوز في المخيّم لا يزال يبحث عن جهةٍ إرهابيّة لتخطفه لعلّهم يقتلونه فيشمت بالحياة وينتصف منها، وأمّ گورگيس وأمّ فاطمة لا تزالان تنتظران الفرج. تهربان كلّما نظر ابن الحكومة إليهما. خَلَقَت الحرب داخلهما ألف خوفٍ لباعثٍ يتيم. لا تستطيع دخول الحرب والخروج منها دون الابتلاء بعيوبٍ ليست خلقيّة تبصق على ظلم الحياة، تمامًا كما لا يزال الطفلُ السوريّ يبصق عليّ كلّما زرتُ المخيّم.

قادتنا الخيبة جميعًا إلى هنا، كالتنا بذات الكيل وساوت بيننا على طريقتها الخاصّة، وما زلنا لا نريد مغادرة منازلنا التي لم نسكنها قط.

كنت أظنّ أنّ المنزل هو المكان الذي نعيش

فيه، لكنّني اكتشفتُ أنّ أحدهم قد يكون منزلًا. قد يكون المنزل صورة عالقة في ذهنك، صورة زفافك الوهميّة أو صورة رفاق الحرب. قد يكون المنزل لمسة سالت على رأسك. قُبلة رُسِمَت على خدّك أو رائحة ترفض مغادرة أنفاسك، رائحة حساء بصل ربّما أو عبق تفّاحة قَضَمَتها أنياب الحرب.

كان زوجها المنزل، لكنّه تهدّم. هكذا قَرَّرَت البصّارة.

لا يوجد من لا يأوى إلى منزل، لكنّنا جميعًا في التشرّد شركاء.

2

مرّت تلك السنوات الأربع وكأنّها لحظة طيش عابرة عاشها مراهق في كنف حياةٍ – البقاء فيها ليس خيارك – رَكَلَته يومًا على مؤخّرته ليصرخ من الألم ويطلب العفو والسماح عن نزواتٍ وخطايا وأفعالٍ شائنة ارتكبها غافلًا.

إنّها ساعة الحسم. فلننهِ هذه الملحمة ولنحقن الدماء يا بيروت وليعُدْ كلّ منّا إلى قواعده. دعينا نمزّق شرائع وعهودًا دوّنّاها وأقسمنا عليها في الأمس القريب.

والدتي تنظر صوبي وقد ملأت الشماتة عينيها وبرَّقتهما، وجيوفاني ينتظرنا في السيّارة ليقلّنا إلى المطار فيوفّر عليّ عناء اصطياد سائق أجرة

لطيف كالذي صادفني ذات نزهة إلى المطار.
القادة والزعماء من كلّ الطوائف والأديان والمناطق اللبنانيّة في الخارج يقدّمون عروضًا ووالدتي تغلق الستائر كي لا أرى لافتاتهم تطالبني بالبقاء.
– كلّه كذب، أوعى تصدّق إنسان عربي أوعى. أبوك عربي وكان كذّاب. ضبّ غراضك خلّينا نمشي بيكفّي يالّلي شفناه من هالبلدان.
ألملم حوائجي وأتفقّدها وأواصل البكاء على كسوفٍ أعلم أنّه سيدوم. على الأرجح هذه هي المرّة الأخيرة التي أستنشق فيها لبنان، فأنا أجبن بكثير من أن أواجهه بحطامٍ يحتويني ويحتويه.
هناك، في تلك القارّة، الأمر أسهل بكثير. توصل ليلك بنهارك بسريرك بأحلامك فتكون بخير ويستوي الحنين.
جارتنا الدردبيس تسأل عن سببِ كمّيّة الحقائب التي كنّا نعتلها على السلّم بسبب توقّف المصعد عن العمل وكأنّه يعلن عن حالة استنفارٍ واستنكار لمغادرتي المكان. والدتي لا تجيب عن أسئلة الجارة وتتعذّر باللغة. تربأ بنفسها عن الحديث مع العرب. تستعجلني

النزول خلفها وأنا أبحلق بهما.

– يا حبيب قلبي هرّبتك هالبلد متل ما هرّبت غيرك؟

قالت الجارة وأهدت لي ابتسامةً حزينة ودَعَت أن يوفّقني الله في قراري وربّتت كتفي الغارقة في بئرٍ غويطة من العرق.

الأمتعة ثقيلة والجوّ كئيب. تتخلّلني رغبة مُلحّة في التظاهر بالمرض، لكن ليس الربو هذه المرّة. أيّ مرضٍ يمنعني عن السفر ويشدّني مجدّدًا إلى منزلي؟

لا أريد مغادرة منزلي.

أريد البقاء هنا للاستمتاع بزحمة السير الخانقة على طريق الداون تاون صباح أيّام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وأيّام العطل الرسميّة وغير الرسميّة. أريد الوصول متأخّرًا عن عملي لينهرني المدير ويحسم من راتبي الهزيل.

ألن أركض صباحًا على ساحل بيروت؟ ولن أزور خال والدتي المملّ وعمّتي الحزينة؟ هل تصبح جَلَساتي وجولاتي مع جيوفاني في الجمّيزة ورقة صفراء سقطت في خريف حربٍ؟

لِمَ أهرب دومًا منها؟ لِمَ أخفقتُ في مواجهة

تنّورين؟ لماذا لم أزرها خلال تلك السنوات التي مضت وكأنّها لم تشعل داخلي نوبات حنينٍ يلتهمني يوميًّا؟ هل أتمكّن من العيش بمنأى عن بيروت التي اختبأتُ يومًا بين أجمةِ أضلعها؟ وهل عليّ أن أعود غدًا إلى رحم أمّي وأستأنف حياةً سابقة كنت قد نسيت تفاصيلها بعد عودتي إلى لبنان؟

وَقَفَت بيروت يومها وقفة المتفرّج. ترفض النظر صوبي. لا تريد التأثير على قراري.

«إن أردتَ الرحيل فهنيئًا لك كلّ شيء. وإن قرّرتَ البقاء فهنيئًا لك اللّاشيء. ليس لك عندي المزيد»، لَخَّصَت بيروت مفاد الحكاية.

أنا أفكّر ووالدتي تصرخ من سيّارة جيوفاني. كلّ شيءٍ على حبل الذراع لكنّها خائفة من زحمة السير. تخاف ألّا تصل إلى المطار في الوقت المناسب وتغادر الطائرة ولسنا على متنها. تخاف دومًا من الزمن فتعلّمتُ منها أن أكرهه.

كانت الطريق غير سالكة هذه المرّة. والدتي تجلس في المقعد الأماميّ وتدخّن. تمدّ يدها وترمي آخر نزواتها من النافذة، فشوارع بيروت حقل مخلّفاتٍ يتّسع للمزيد من النفايات. والدتي لا تأبه ببيروت إن ماتت بالسرطان أو بشيءٍ آخر.

بيروت درويشة وبتسامح، هكذا يقولون.

لم تزعجني رائحة سيجارتها هذه المرّة ولم أفكّر أن أنصحها بالإقلاع عن التدخين. قَدَّمَت سيجارة لصديقي فطلبتُ منهما الاستمرار في التدخين لأنّني أعاني من الربو.

3

قبل مغادرتي كان عليّ أن ألتقي وإيّاها. لم تكن المرّة الأولى، ولا الثانية، ولا حتّى الثالثة. التقينا عشرات المرّات من قبل من دون أيّ اهتمامٍ واضح من كلينا. أردتُ أن ألتقيها هذه المرّة على مرأى ومسمع من الجميع.

أحيانًا تعجبني، وأحيانًا أخرى أكره النظر إليها لأتجنّب الوقوع في مصيدة اشتهاء ما لا أملك.

وقفتُ عند مدخل المطار. خاصَرتها ووضعتُ يدي بيدها ودخلنا صالة المغادرة وكأنّنا في حفل زِفافنا. وكأنّ جميع من كان هناك بدأ بالتصفيق لنا وبفرش طريقنا بأمنياتٍ اعتدنا سماعها فقط. لا شيء منها يتحقّق، لذلك هي أمنيات وستبقى.

«حبيبتي... بدّي قلّك شي. في شي بقلبي مكسور وما قدرت صلحه. ما قدرت رمّم حالي من جديد. يمكن أنا ما بستحق إنّي عيش معِك. ما بستحق إتنفس هالهوا وما بستحق تغمريني. بس أنا بحبِّك... هيك حسّيت من قبل ما شوفِك. ما حدا علّمني حبِّك وما حدا سمحلي حبِّك. كلّن علّموني إكرهِك. بس أنا حبّيتِك، والحب بيوجّع. كل شي فيكي عم يفتّح فيي جروح صارلي سنين عم جرّب إنسيّا. أنا مش قوي لحتّى عيش معِك. بحبِّك كتير... بحبّ ريحتِك وبحبِّك لمّا تزعلي منّي وبحبّ لمّا تسألي عنّي... بحبّ لمّا إحكيلِك همومي وتسمعيني وتطمنيني إنّه كل شي بيصير أحسن لمّا نصبر. بتعرفي أحلى سنين عشتا بحياتي وأنا معِك؟ رغم كل شي ورغم كل هالوجع الموجود بقلبي ورغم كل شي شفته. مشتقلِك من قبل ما فلّ... بدّي أوعدِك بشي... رح تبقي بقلبي كل ما في نفس بروحي...

بيروت... بحبِّك».

كلّا... ما تفكّرون فيه خطأ. قراري لم يكن فجائيًّا ولم يكن وليدَ لحظةٍ ما، ولم يكن نتيجةَ ضغط والدتي عليّ لأغادر بيروتي. لكنّ الحيلة أعيتني

في البقاء. نَفَدَت حججي ونَضَبَت مكابرتي أمام نفسي وأمام والدتي. فهذه المدينة فتنتني... لكنّني لم أجد فيها منزلي كما كنت أحلم.

النهاية أرخت سدولها ولم يُترك لي إلّا بقايا الرحيل الذي لا زيغ في ألمه.

تعبت و بدّي فل. تعبت من كل هالوجع الموجود بلبنان. تعبت من وجع لبنان إلّلي بغصّ فيه كل يوم. تعبت من قصص العالم ومن وجعن ومن همومن إلّلي زادت على وجعي ألف وجع. تعبت من أسئلة العالم عن ديني ومواقفي وجنسيتي وأصلي. تعبت وأنا إشرح معنى إسمي وإسم عيلتي. تعبت وأنا فسّر وعلّل لون شعري ولون عيوني ولهجتي المكسّرة. تعبت وأنا خبّي تعبي من كل شي حواليّي. تعبت من تعب الناس وتعب العراقيين والسوريين واللبنانيين. تعبت من هالسرطان إلّلي عم ياكل لبنان ونحنا عم نتفرّج. تعبت من حالي ومن ضعفي.

– الطيّارة بعد ساعة ما في وقت لازم نفوت هلّق.

قفز صوت والدتي أمامي.

– أنا طيّارتي بعد بدها وقت.

– طيّارتك؟؟ نحنا عنفس الطيّارة... شو قصتك؟

لم أجبها.

– ليه واقف قدّامي متل الطلطميس، فهّمني شو عم بيصير؟

– لا... مش بنفس الطيّارة... أنتِ طيّارتِك على لندن. أنا مش راجع على لندن. أنا رايح عدبي.

– « What?»، رمت حقيبتها أرضًا وصَرَخَت بوجهي وقد تجلمد جسدها وتربّد وجهها.

– ماما... بعتذر بس ما بقى بدّي عيش معِك. تعبت منِّك شخصيًّا.

– ليه أنا شو عملتلّك لحتّى تتعب منّي؟

– بالضبط... لأنّك ما عملتيلي شي. عمومًا أنا تعبت من حياتي بلندن وتعبت من حياتي ببيروت وتعبت من حياتي كلها. لهيك قرّرت عيش لحالي. بعتقد ببريطانيا عندكن هالحق شرعي.

– كيف بدّك تعيش هونيك وإنت ما بتطيقا؟

– مش رح عيش بدبي... بدّي إشتري بيت ببلد تانية. بس بالأول رح روح على دبي. خلّيني صلّح شوي من حياتي. خلّيني صلّح عَلاقتي بخيّي اللّي حرمتيني منو بأنانيتك.

– أنا أنانيّة؟ بتعرف؟ لازم إتبرّى منّك على هالحكي.

– عن جد؟ على علمي تبرّيتي منّي من

سنين.

– طب لوين ناوي تروح؟

– بس تفكّري تزوريني ببعتلِك عنواني. أو بتعرفي شو، أنا بزورِك أسهل.

– ليه بدّك تتركني؟

– لأن بس صايرة تتركيني ما عم إنوجع.

بَحَثَت عن جواز سفرها في حقيبة يدها ثمّ صافحتني بلكنةٍ بريطانيّة. بمنتهى الوقاحة تَجاوَزَت وقع صدمة انشقاقي عنها.

تَلَطَّفَت نحوي واقتَرَبَت من جسدي وفاوضتني في قُبلةٍ لكنّني عزفتُ عن تقبيلها وأفصحتُ لها عن خوفي من التقاط أيّ فايروس أو التهاب أو زكام. صافحتها بأطراف أصابعي، فاشتاطت غضبًا لكنّها كتمت انفعالها وذهولها ولبّت النداء وتراجعت. أملك أسبابًا منطقيّة تحول بيني وبينها.

غادَرَت والدتي إلى لندن بعدما قالت لي إنّ زيارتها هذه هي الأخيرة لبيروت وللشرق الأوسط. عَرَضَت شقّتها للبيع خلال زيارتها هذه لقطع أيّ عَلاقة لها ببيروت. قبل أن تمضي، كَتَبَت لي عنوان سكنها الجديد في لندن على

قصاصة ووضعتها في يدي.

تناولتُ القصاصة ولففت بها شطيرة «حلاوة» كنت قد أحضرتها معي من المنزل.

أكلتُ الورقة ورميت الشطيرة.

طيلة السنوات الماضية وأنا أحاول استرجاع قصاصات هُويّتي. حاولتُ تجميع رموزها لأفكّ شيفرات انتمائي. أريد الوصول إلى أرضٍ تمثّلني لا أستطيع أن أحيا بعيدًا عنها وعن أهلها وعن ترابها ونسائمها.

تَمَزَّقَت تلك الهُويّة. تمزّق الانتماء مذ غادرتُ البلاد وانجذرتُ من منزلي وارتميتُ فوق مَدرَجِ غربةٍ سلّمني إلى حنينٍ ما لبث يتفاقم داخلي ويسيطر عليّ، فأصبح غزال وطنيّتي يسبح برشاقةٍ في بريّة هذا الكون الغريب. يبحثُ عن فوهة قنّاصٍ تخطف ظلّه المُغترب. لا أنا سعدتُ بحياتي في لندن ولا استطعتُ الانخراط في لبنان. وهأنذا الآن أقف تائهًا بلا منزل.

لم أحمل الأمنيات وأنا أغادر. ولم أنظر إلى الوراء. هذه المرّة ليس خوفًا من أن أتحوّل إلى عمودِ ملحٍ، بل خوفًا من رؤية جدّتي.

ذهبتُ إلى صالة الانتظار بعينين بائستين

تتضرّعان إلى الغد وبيدين تترنّحان يمينًا وشمالًا بلا وجهة واضحة لمرساهما. غادرتُ وأجوبة عديدة بلا أسئلة تنخرُ رأسي.

ربّما سيتّسع الوقت أمامي لألملم شتات نفسي في يوتوبيا خياليّة. سأتعلّق بذيلِ غيمةٍ قديمة وأحبو معها في سماءٍ بشُرفةٍ لا يراها أحد، ولا تطلّ على شيء، وسأشتري هناك منزلًا جديدًا ووطنًا جديدًا وكونًا جديدًا ولن أغادرها ما حييت.

البداية

شكر خاصّ

كريستال عاصي
هدى مرمر
ميسون الشاهين
رحاب سبعلي
علي صالح
سلام ديك
أحمد علاء الدين